الطبعة الخامسة

امرأة سيئة جداً

هنوف الجاسر



KALEMAT

• امرأة سيئة جدًا
• هنوف الجاسر
• دار كلمات للنشر والتوزيع
• الطبعة الخامسة ٢٠١٧
دولة الكويت / محافظة العاصمة
تلفون : ٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤
تويتر : @Dar_kalemat
إنستجرام : Dar_kalemat
Dar_Kalemat@hotmail.com
للتواصل مع المؤلفة:
hnoufaljasser@gmail.com

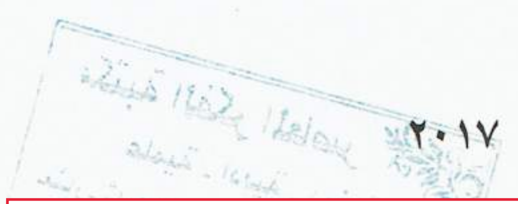
رقم الإيداع : 2016/1568

ردمك : 978-99966-92-88-8

امرأة سيئة جداً

رواية

هنوف الجاسر



٢٠١٧

-١-

«امرأة واحدة في تاريخ رجُل الصحراء قادرة على أن تخلُق فيه جنّة ، لكنه لا يتزوّجها» .

- صباح الخير . .

- صباح النور أهلا . .

- ممكن نتعرف؟

- . . .

- معك بشار ، 25 سنة ، وأنتِ؟

- . . بسمة .

- تشرفنا .

هذه كانت المرّة الأولى التي حادثني بها «بشّار» قبل ثمان سنوات . أذكر تنبيه أول رسالة بيننا ، أذكر حتى النغمة والشعور الذي خالجني ، خجل وخوف وقلق ورهبة وكأني ارتكبت خطيئة لذيذة . عِشت ساعة كاملة مليئة بالتردد والتوتر

وأنا جالسة أمام الكمبيوتر المكتبي في غرفتي ، صفحة المحادثة مليئة بالرسائل الواردة ، بينما الصادرة تُعد بالأصابع .. كانت هذه البداية التي بعدها تغيرت حياتي للأبد .

ما هو «الحب»؟!

كيف يكون الوقوع به؟!

ما هي الخطوات التي يُفترض فعلُها لأنهض بسلام ؟

كيف أحافظ على قلبي من التخلّي عني؟!

كيف أوازن بين الغيرة والثقة ، الحنين والخوف من الفقد؟!

كيف أمدد صبري ليكفي ساعات الاشتياق فلا أشعر بأني سأموت بعد قليل؟!

لا أعرف الاجابات .. في الحقيقة أنا لا أعرف شيئًا من هذا كله ، لكنني متيقّنة جدًا بأني كُنت في أعمق درجات الحبّ . رُبما في الحضيض!

قبل أن أعرف أن اسمه ليس «بشّار» بل «بدر» وقبل أن أكتشف أن عمره ليس ٢٥ بل ٢١ عام ، قبل أن أعرف أنه ابن خالتي الذي كان هنا في المنزل ، قريبًا إليَّ ، تفصلني عنه جدران فقط . قبل هذا كله أحببته ، أعجبني صوت «بشّار» حين ينطق «الو بسّوم» ، فتنتني الرسائل المليئة بالسُكر حدّ

الدبق ، أغرمت بفكرة وجود شخص ما في هذا العالم يحبّني ، أنا بكامل بشاعتي و«عاديّتي» . من بين كل الجميلات اختارني قلبه ، كنت أعيش لأجل اللحظة التي أختلي بها معه عبر هاتفي ، فتصير غرفتي الباهتة جنّة من الألوان .

لكن «بدر» جعلني أُتيّم به لواقعيّته في حياتي حتى وإن كان لا يعرف عني أكثر من إسمي «مزنة»!

بالنسبة لـ «بدر» أنا «مزنة» ابنة خالته التي تعيش في قرية معزولة ، أخت «محسن» و«متعب» ، و«ممدوح» ، قريبته التي لم يرها ولا مرّة حتى في طفولتها ، لا تعني له شيئًا عدا أنها من العائلة .

أما «بشّار» فيرى فيها «بسمة» الفتاة الجميلة ، حبيبته التي لا يطيق عنها صبرا . الصوت العذب الذي لا يشبع منه ، أميرة قصائده وسِرُّه الذي لم ولن يُخبر به أحدًا ، المرأة اللذيذة التي استطاعت أن تُشعل قلبه وتُطفئه دون أن يرى منها شيئاً ، أحبّها وذاب عشقًا بها لأنها لم تكُن واضحة كبُرهان ، كانت مملوءة بالغموض والألغاز المُثيرة التي جعلت اهتمامه دائمًا في حالة هياج!

لا أذكر بأني عشتُ فرحة عظيمة تفوق فرحتي من أجله يوم تخرّجه ، وأول صباح استيقظ فيه ليباشر العمل في وظيفته الجديدة . كنت السبّاقة بالتهنئة ، الأولى في الدعاء له ، الوحيدة بعد والدته التي تستيقظ في منتصف الليل لتفرش

سجادة الصلاة ثُم تنسى نفسها وتدعو له حتى يتنفّس الصبح .

«بسمة» كانت الملاك الحاضر دائمًا في قلب «بشّار» ، وحده يراها بعينيه الحادّة التي أبيع من أجلهما عمري كله . كانت تحبّه بجنون العشق في شوارع باريس ، بينما «مزنة» كانت مغرمة به بخجل ابنة البلد التي تسترق النظر إلى حبيبها من نافذة الصالة المُطلّة على «حوش» الرجال! . .

ابنة البلد التي لن تستطيع الخروج عن العادات والتقاليد لتُعلن لابن خالتها بأنها تحبّه ، لتبوح له باللحظة التي عرفت بأن «بشّار» هو «بدر» حين أرسل لها صورته لأوّل مرّة ، لتقول له أنها ليست بيضاء ولا رشيقة القوام وشعرها ليس طويلا ناعما وفاحما كالليل .

ابنة البلد لـن تكون شـجـاعـة بما يكـفي لتـتـخلّى عـن وهم «بسمة» وتعود للواقع الأجدب ، لتكون أمامه «مزنة» بوجهها الأسمر وشعرها القصير الأجعد ، لا تمتلك الثقة الكافية التي تضمن لها بأنه سيبقى إن عرف الحقيقة .

سيتركها ليس لبشاعتها ، وإنما لأنها من العائلة ، وقبل أن تكون ابنة خالته هي أخت صديقه «ممدوح» الذي لن يتردد دقيقة في قتله إن عرف بأنه ينام على صوت أخته كل ليلة!

كـان علي أن أكـافح لأحـافظ على «بسـمـة» في داخلي ، رُغم أنـهـا تتـلاشـى في لحظات لتطغى «مزنة» عليـهـا ، يغـازل «بشّار» ، "بسمة» وتخجل «مزنة» بينما الأخرى تختفي تمامًا من الوجود .

كـان علي أن أكـون «بسـمـة» في كل حـدث مُسـتـجـد في حياتي ، حين خسرت وزني أخبرته بأني غيّرت لون شعري ، وحين أملّس شعري كل شهر كُنت أخبره بأني ذهبت للصالون من أجل أظافـري أو حـاجـبيَّ ، كـان علي أن أكـونـهـا في كل

مـرحلة أمـرّ بهـا ، الثـانوية ، الجـامـعـة ، والفـراغ الطويل بعـد التخـرّج .

كُنت أتمسّك بها كطوق نجاة أعبر به من ضِفة إلى أخرى في حـياته ، هي الوسيلة الوحيدة التي أستطيع بها أن أحـافظ عليه وأحبّه بالطريقة التي أريد وأشتهي!

«مزنة» لا تستطيع أن تفـعل أي شيء أكـثـر من أن تحـبـه بصمت يقتلها كل يوم .

«بسمة» كانت قادرة على صُنع المعجزات، كانت تتلاعب في مزاجه كالعجين، مسيطرة تمامًا على قلبه وعقله وكأنهُما دُمى الخيوط لكنها لم تستطع أن تجعله يتخلّى عن شرقيته من أجلها، فلجأ لوالدته حين قرر بأنه حان الوقت ليستقرّ ويبدأ بتأسيس عائلة تخصّه، مع امرأة أخرى تختارها خالتي «أمينة»، والتي حتمًا لن تختار «مزنة» حتى وإن كانت المرأة الأخيرة على وجه الأرض!

«بسمة» لم تحزن كما فعلت «مزنة» لهذا الخبر الذي سقط كشهابٍ على قلبها الغضّ فأحرقه، أذكر تلك اللحظة التي أخبرتني أمي بها بعفوية وهي تتناول فنجان القهوة من يدي:

- «بدر» ملّك أمس، دقّت خالتك تعزمنا على العشاء يوم الأربعاء».

سرَت فيَّ نفضة زلزلت كياني، حافظت على هدوئي لبقية اليوم وما إن دخلتُ غرفتي تلك الليلة حتى انفجرت بكاءً وحسرةً، شعرت وكأني أحتضر وهذه هي نهايتي فعلاً،

اختنقت بغرغرة الروح في حلقي وبدأت أطرافي تتجمّد وأيقنت بأني سأموت ، قلبي كان يتخبّط في داخلي كعصفور موجوع ، أصابَني وهن شديد فمرضت بالحمّى ، وفي الحقيقة كانت هذه رحمة من الله ، لم أحضر العشاء مع أمي ، حتى «بسمة» تعاطفت معي وأقامت عزاء في داخلي .

لا أدري لمَ أوجعني هذا الحدث ، كان متوقعًا على أي حال .

وبالطبع لن أكون أنا التي سيختارها ، رجل مثل «بدر» بوسامته وجاذبيته بالتأكيد سيتزوّج فتاة جميلة ، تُشبه «بسمة»!

تغاضيت عن كل كذبة قالها لي ، حتى في ليلة عقد قرانه حين أرسل لي بأنه سيكون منشغلاً مع «ضيف» ولن يستطيع التواصل معي ، لم أشك ولو للحظة أن هذا الضيف «أنثى» . . امرأة جميلة جدًا اسمها «شهد» . اسم مناسب جدًا ليجاور «بدر» في بطاقة الدعوة التي تلقيتها من خالتي!

-٢-

«لا شيء يجعلنا أغبياء كما يفعل الحب» .

توقّعت بأي لحظة أن يهجرني «بشّار» ، كُنت أنتظر اليوم الذي يُمر دون أن يُرسل لي شيئًا أو يتصل ، فهيأت نفسي وبدأت بمراسم الوداع ، حذفت كل شيء يذكّرني به ، بكيت كل ليلة وأنا أتابع فيلماً رومنسياً حزيناً كما تفعل العاشقات بعد الانفصال ، بدأت أحاول الانشغال بأي شيء حتى لا أجد فُرصة لأفكر به . لكن هذا اليوم لم يأتِ أبدًا ، كان دائمًا يُرسل لي اعتذارًا في صباح اليوم التالي لابتعاده عني في اليوم الذي مضى ، كل مرّة ظننتُ بها أن هذه هي النهاية وهذا يوم الوداع تأتي رسالة في ساعات الفجر الأولى فتعود «بسمة» للحياة .

في كل مرّة يعتذر لإنهاء المحادثة بيننا مبكّرا لأي كذبةٍ ما ، كُنت أتفحّص صوته ورسائله لي علّي أجد بها وداعًا خفيًا ، لكنني لم أجد شيئا . لم يتغير «بشّار» أبدًا عدا أنه صار

ينشغل عني كثيرًا ولا عجَب ، صارت في حياته امرأة أخرى حقيقية . تنظر إليه ، تلمسه ، تقبّله ، تشُم رائحته ، تعيش النعيم الذي تحلم به «مزنة» . هذه الفتاة العاديّة جدًا ، تكاد تكون غير مرئيّة مقابل «شهد» بقوامها الممشوق وشعرها الطويل وابتسامتها ناصعة البياض .

أوّل مرّة قابلتها كانت في اجتماع عائلي ، شعرتُ بمعدتي تتقلّص من الوجع حين صافحتني وابتسمت لي ، شفتيها مليئتان بلون الكرز ، وعيناها ساحرة شهيّة للشِعر والقصائد ، كانت مليئة بالحياة ، بطنها متكوّر تحت فستانها القصير الذي يكشف عن ساقيها المُغرية ، كانت صورة حيّة لـ«بسمة» التي وصفتها لـ «بشّار»!

استطاعت خالتي أن تختار له الفتاة المُناسبة تمامًا ، لم أرَ في حياتي امرأة تنطبق عليها مواصفات «بسمة» أكثر من «شهد» ، أدركت أن «بدر» كان يبحث بطريقةٍ ما عن «بسمة» لأنه لا يجرؤ على الفوز بها . فكانت هذه الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها الزواج منها ، حتى وإن كانت مجرّد «صورة» في خياله .

«لا أحد يشعر بوجع صبيّة البلد حين تضطر لمخالطة امرأة سرقت منها مكانها باسم الحظ . المقعد المجاور للسائق والنصف الآخر من السرير وخزانة الملابس . الأمر أشبه بتجربة لطعم

الموت دون أن تموت فعلاً . لا حق لها بالهرب أو البكاء علناً ، تصمُت وتبتسم وقد تقبّل أطفالها وتلاعبهم بقلبٍ مفطور . على عكس الرجل حين تُسرق منه حبيبته ، يستطيع الهرب والهجرة دون أن يقلق من مواجهة السارق ، أو مصادفة أولادها والتورط المخيف برائحتها في ملابسهم» .

أخجل الاعتراف بهذا . .

لكن . .

في لحظاتٍ قليلة جـدًا ، نادرة ، كُنت أشـعـر بشيءٍ من الأمل في داخلي بأن القدر قد جمعني مع «بدر» لأنه نصيبي في الحياة!

هذه اللحظات تحديدًا أكون بها «مزنة» فقط ، ابنة خالته التي تحبّه لدرجة تفوق الجنون ، ويكون «بشّار» في عيني «بدر» ابن خالتي الذي سيختارني لأنه يحبّني . يحبّ «مزنة» ولا أحد غيرها .

خسرت وزني واهتممت بنفسي جدًا لأكون جميلة في ليلة العُمر بفستاني الأبيض رُغم علمي بأني سأكون أجمل نساء الكون في نظره .

لا يُعقل أن تجمعنا الصُدفة عبر محادثة عابرة دون أن يكون ورائها إشارة من القدر لشيء أكبر وأعظم ، شيء يُشبه الفرح ، منزلٍ صغير نملأه بالأطفال ، نكبر معًا ونشيب معًا ونموت معًا .

كُنت أحاول أن أحظى بإعجاب خالتي في كُل مرّة تزورنا أو نذهب لزيارتها ، فكُنت أمامها مثالاً لـ «البنت السنعة» ، دائمًا مستعدة للخدمة والمساعدة حتى وإن لم يتطلّب مني ذلك ، كُنت أسبق يديها إلى دلّة القهوة وأنا أقول :

- عنّك يا خالة .

جعلني الحُب ساذجة!

زرع في داخلي أملاً مُستحيلاً ثُم تركني بكل غباء أسعى له,

كُنت الغولة البشعة التي تركض وراء الأمير الوسيم ، وعلى عكس الخُرافة لم أتحوّل إلى أميرة جميلة في الصباح ليقع الأمير في غرامي ، كُنت دائمًا غولة لو رآها الأمير مرّة لفرّ هاربًا من الخوف .

«بدر» . . حسبما سمعت في مجالس نساء العائلة ، يعيش حياة سعيدة مع «شهد» فلم أسمع ولو لمرّة واحدة أنهما على خِلاف وفي كل مرّة أراها كانت مُزهرة بالحبّ ، فلا أدري لمَ احتفظ بـ «بسمة» في حياته ، هل بدافع الحبّ أم الطمع؟

استمرّ بالتواصل معها على الوتيرة ذاتها ، ولا يزال متمسكًا بهويته الوهمية ، "بشّار» الأعزب الذي لم يُفكر بالزواج حتى الآن وإن فعل سيختار «بسمة» حبيبته الجميلة وسيقيمان احتفالاً كبيرًا يلم شمل العائلتين إلى الأبد!

حين أرى «شهد» ، أرى امرأة مثاليّة ورائعة لم يغيّر جمالها شيء ، عادت كما كانت بعد أن أنجبت له طفلة حلوة تُشبهها ، حين أنتبه لتفاصيلها الصغيرة ، ابتسامتها التي لا تنطفئ ، البريق في عينيها ، حضورها الطاغي في كل مناسبة ، أرى امرأة يحلم بها أي رجُل في هذا العالم ، أتعجّب لمَ قد يفكّر بامرأة غيرها؟! كيف يجرؤ على قول «أحبكِ» ، "اشتقت لكِ» "أريدكِ» لأخرى غيرها؟! حتى وإن كانت مجرّد حزمة بيانات في هاتفه .

لا أحبّ أن أتعمّق كثيرًا بهذه الأفكار ، أعرف أنني سأنتهي عند نُقطة ستبقى مرارتها أسبوعًا وأكثر في قلبي ، وستمنعني عنه ، ستحرمني متعة الكلام والثرثرة معه .

أكره أن أراه زوجًا لأخرى ، خائنًا معي ، أكره أن أرى نفسي طرفًا ثالثًا حتى وإن كنت أعلم أن هذه هي الحقيقة . أفضل أن أعيش وهم «بشّار» الثلاثيني الأعزب المُغرم بـ «بسمة» على حقيقة «بدر» . . الذي صار الآن «أبو بسمة»!

مراتٍ كثيرة حاولت بها أن أكرهه ، أن أضع نفسي في مكان «شهد» وأتخيّل كيف ستكون حياتي حين أكتشف أنني

أعيش مع خائن استغفلني طيلة عمري معه . وبدلاً عن شعوري بالأسى والوجع كنت أندمج في الخيال وأستلذّ به . فأنسى أنه خائن وأراه زوجًا مثاليًا ، يحبّني وأحبه ، ونعيش معًا حياة رائعة .

كيف يُمكن للحبّ ، هذا الشعور الطاهر أن يجعلنا أشخاصًا سيئين إلى درجة الخُبث وأغبياء حدّ البلاهة؟!

كيف لم أشعر بالإهانة في هذه المهزلة؟!

لمَ لا أرى الخراب الذي كُنت أفعله بالبقاء في حياة رجل متزوّج؟!

وكيف كُنت أبتسم في وجه زوجته وأنا كُنت البارحة أضحك مع زوجها في سهرة مليئة بالغزل والحبّ الفاحش!

ورُغم أني كُنت غارقة في بِركة من الوحل ، تُحيط بي القذارة من كل جانب . .

كُنت في قمّة السعادة ، وأحارب لأجل البقاء!

حتى الآن لم أحدد شعوري تجاه «شهد» ، لا أستطيع أن أكرهها فهي لم تُعطني سببًا لذلك ، هي لم تختر أن تكون صورة مطابقة لـ «بسمة» ولم تركض وراء «بدر» لتسرقه مني .

تمنّيت لو أنها فعلت ، سيكون لديَّ دافع أقوى من مجرّد غيرة امرأة عاشقة لأحارب وأدافع وأستغلّ كيدي العظيم أبشع استغلال!

لكنها لم تفعل أي شيء . .

على العكس ، كانت طيبة حدّ الوجع ، تتعمّد في أوقات كثيرة التحدّث معي ومحاولة بدء أي نقاش حتى ولو كان عن لون فستاني أو حقيبتي ، لا يهمني إن كان تصرفها بدافع العطف والشفقة ، يكفيني أن أرى «بسمة» الصغيرة وهي نائمة في حضن والدتها بطمأنينة الملائكة ، هذه الطفلة التي أشعر أنها قطعة من قلبي . وكأنها برهان على أن حُبي لـ«بدر» لم يكُن يومًا غلطة!

حين حملتها آخر مرّة بكيت دون أن أشعُر، لم تكُن صغيرة الحجم، كبرت قليلاً وبدأت ملامحها تميل إلى «بدر» أكثر، كانت تنظُر إليّ بوجهٍ عابس على وشك البكاء، أدركَت أن هذه المرأة البشعة ليست أمها، ولن تكون أبدًا جُزءً من حياتها بأي شكلٍ من الأشكال. وحين بكَت سحبتها مني والدتها وهي تعتذر بابتسامة كسرت روحي!

هذه اللحظة بالذات سقطت من فضاء الخيال على أرض الواقع المتحجّر، تهشّم قلبي وتناثرت أجزائي كقطع من الزجاج المكسور..

كأن الجاذبيّة تضاعفت ألف مرّة وهي تسحبني من الأعلى لأقع على وجهي، كأنها تعاقبني على غبائي وسذاجتي طيلة الفترة الماضية من عمري..

كانت لحظة مؤذية جدًا فقدت فيها «بسمة» إلى الأبد..!

-٣-

«يوجعني أن أكون أمنيةً وحُلمًا لـمْ تَسْعَ إليهما لإيمانك الكبير أني امرأة مُستحيلة الحدوث»

- «بسّوم» . . أنتِ بخير؟!

- . . .

- أرجوكِ ردي علي . . وغلاتي عندك .

- . . .

- حرام عليك شهر كامل ما أعرف عنك ولا شيء ، متى صرتِ قاسية لهالدرجة!

مُنذ أن أصبحت وحيدة ، لا أرى في المرايا إلا وجهًا واحدًا فقط لامرأة اسمها «مزنة» ، هذه التي همشتُها لفترة طويلة ولم تتركني أبدًا ، رُغم كل الأشياء السيئة التي فعلتها بها لم تتخلَّ عني ، بقيَت في داخلي تتلقّى كل أشكال العُنف والسُخرية والتنمّر وتصمُت ، لم تُحدث جلجلة ولا صخب . حتى الآن

وأنا في قمّة الوجع لم تبتعد عني ، تجلس أمامي وتنظُر إليّ ببرود ، أشعُر بها تُريد أن تقول شيئًا ما لكنها لا تفعل . تبتلع الكلام بمرارة وتحاول أن تخلُق فُرصة للابتسامة .

لم أكُن أعلم أنها بهذه الطيبة واللُطف ، كيف لم تكرهني حتى الآن؟! كيف لا تزال تحبّني وتهتم لأمري؟! وأنا التي ركنتها في رفّ النسيان وسعيت وراء «وهم» لا يُشبهني ، يناقضني في كل شيء . ثُم حاولت أن أكونه ومن أجل ماذا؟ رجل!

رجُل لو رآني صُدفة لتجاوزني كأي شخص غريب في هذا العالم ، لن ينتفض قلبه ولن تسري في نفسه قشعريرة ، لن يتوتر ويتخبط بالكلام كما يفعل العشّاق ، سيمضي في طريقه ويترُكني أتأمله وهو يبتعد حتى يتلاشى أمام عينيّ . .

رجُل لم يحبني حتى!

أحب الوهم الذي كُنت أتظاهر بأنه أنا!

أحب «بسمة» بجمالها وجاذبيتها وسحرُها وجُرأتها ، لم يحبّ في حقيقتي إلا «الصوت» وهذا لا يكفي ، فصوتي لم يكُن محظوظًا ليفوز بشطرٍ واحد من قصائد الغزل التي كتبها ،

سخَّر شِعرُه ليصفَ «بسمة» ، بشرة صافية كالزُجاج ، عيون واسعة كالبحر ، شفاهٌ مكتنزة شهيّة للقُبل ، سِحر لا يُريد أن ينفك عنه ، وشَعرٌ حريري ينسدل بدلال على صدرها وصولاً إلى خِصرها الضيّق الذي يستطيع أن يُحيطه بيديه فقط!

ولأني غارقة في غرام رجُل مملوء بالكذب والخداع حاولت كثيرًا أن أفتح له المجال ليصارحني بالحقيقة ، وبشكلٍ غير مباشر حتى لا أُحرجه أو أجرح قلبه! ، كان سيُرضيني أن يقول اسمه الحقيقي فقط ، لو فعلها لاندفعت إليه غير آبهةٍ بالحدود والقوانين ، سأضرب بالقبيلة عرض الحائط وأتحرر من كل القيود لأكون معه ، لا يفصلني عنه شيء ، لا جُدران ولا نوافذ ، ثُم أخبره عني ، عن «مزنة» ابنة خالته المفتونة به ، بتفاصيله الصغيرة التي لا تلفت أحدًا ، عن الحبّ العظيم الذي كبر بداخلها حتى صار يجري بها مجرى الدمّ ، عن كل تنهيدة ورعشة سرَت في جسدها حين تسمع اسمه في جلسة عائلية . عن اللحظات الطويلة التي كانت تقضيها خفيةً وراء نافذة «الحوش» لتُشبع ناظريها به قبل أن يُغادر .

كُل هذا سيحدُث لو أنه فعلها!

كل شيء كان جاهزًا . .

النبرة . .

النظرة . .

اللحظة المُناسبة التي سأقول بها «أحبّك» بصوتٍ جَهور، والحياة الطويلة التي سنعيشها معًا. لكنّه دائمًا يخذلني ويتمسّك بكذباته أكثر، ورُغم هذا استمرّ حُبي له وازداد يومًا بعد يوم، كُنت مُجبرة على تجاهل الحقائق حتى لا تختفي سَكْرَة الحُبّ وتموت اللذّة!

كانت تُرعبني فكرة غيابه عن حياتي ، حين أستيقظ من نومي ولا أجد رسالة أو مكالمة لم يُردّ عليها ، هذا الجانب السِرّي الذي أعيشه معه أخاف جدًا من فُقدانه . أعلم أنّي سأراه وسأسمع صوته حين يأتي لزيارتنا لكن الأمر مُختلف إذا كان يلتقط صورة خصيصًا من أجلي ، ويتحدّث معي بشكلٍ خاص . يُخيفني أكثر أن تنطفئ الحميميّة بيننا ، فأراه «ماضٍ» لا أشعر تجاهه إلا بالحُزن!

أشعر بالضياع!

لا أعرف من أنا؟

لا أعرف ما يكفي عن نفسي لأُخرجها من هذا المأزق!

تمضي الأيام وأنا في عُزلة بُكائيّة مستمرّة ، تعبتُ جدًا وتدهورت صحتي وفقدت الكثير من الوقت الذي لن أستطيع إرجاعه . أمسح دموعي في الصباح وتعود مجددًا في المساء ، تنسكب بغزارة لتُبلل الجرح الغائر في قلبي فينقبض على نفسه من الوجع .

لا أصدّق أني كُنت هذه المرأة البلهاء التي أراها في شريط ذكرياتي معه ، كيف استطعت أن أشذّب شخصيتي وأبتلع نصف الكلام الذي أريد قوله لأكون المرأة التي يريد؟!

تظاهرت بالغباء مرات كثيرة كي لا أستنقص من رجولته ، تنازلت عن مبادئي وقناعاتي كي لا يغضب ويستاء ، ملأت صحيفتي بالكذب الذي صار عادة يوميّة أمارسها كي أحافظ عليه . أهنت ذاتي بالتظاهر بأني امرأة أُخرى لا تُشبهني فقط لأكسب قلبه فيُجَّن بي أكثر ، أردت أن أكون جميلة بالطريقة التي يحبها ، كرهت جِلدي وشعري وملامحي الضخمة والهيئة التي خلقني الله بها لأنها لا تجذبه ولا تُغريه .

هل يُعقل أن يفعل بي الحبّ هذا؟

هل يُعقل أنه كلما ازداد حُبي له كرهت نفسي أكثر؟!

كُنت أتجنّب المرايا كما لو كانت وحوشاً كي لا أتقزز من انعكاسي البشع عليها .

فقدت اهتمامي بكل الأشياء التي أحبُّها لأنها لا تعني له شيئًا ، حتى الموسيقى المفضّلة عندي هجرتها وبدأت أسمع ما يحبّه .

انسلخت تمامًا من ذاتي لأجله وفي المقابل لم يفعل من أجلي شيئًا واحدًا!

زوّج امـرأة أخـرى ، حـضنهـا ، قـبّلهـا ، جـاورها في السـرير والسـيـارة ومـقـاعـد الانتظار ومـجلس العـائلة ، حَظيَت بكل الأشـيـاء التي حلمتُ بهـا باسم القـدر وأنا بقـيت سِـرّه الذي يخجل من أن يكشفه أحد .

كُنت له مُتعة ممنوعة يتعاطاها بالخفاء وكان لي دُعاءٌ أبيض يُحدث في داخلي جلجلة لا يسمعها إلا ربّ السماء .

«صيّرُهُ لي يا الله» .

-٤-

«لم أقل أنك لم تحـبني قط . أنت أحـبـبـتني مـرة وأنا أحببتك مرّات» .

مـرّت ثمـاني سنوات وأنا أعـيش في كـذبة ضـيّعت عليّ فُرصـة لن تعوّض ، أن أعيش وأكبر وأتعلّم ، أن أُحِب وأُحَب ، أن أعيش رهبة العاشقات في ليلة الزفاف ، أن يكون لي منزل وأطفال ، عائلة تحتمي بي وتثق بأني لن أخذلها . تنازلت عن حقي في كل هذا لأكون معه ، تنازلت عن كل شيء يجعل مني إنسانة ، من أجله صِرتُ خاوية وفارغة وتافهة . من أجلك يا «بدر» تنكّرت لهويتي وحقيقتي ، خدعت نفسي حتى خسرت كل شيء . كيف تسألني الآن لمَ صِرتُ قاسية؟!

ثمـانُ سنوات من عُمـري ضـاعت بالكراهيـة والنفـور من نفسي ، كفرت بكل ما يعنيني وآمنت بحبّك فقط ، حُبك الذي جعلني عمياء ، أمشي في هذه الحياة بلا بصيرة ، لم أفكر بشيء عدا أن أكون معك ولو بالحيلة .

ثُم ماذا؟!

خسرت كل شيء وتعطّلت حياتي ، فبينما كُنت أعود لوحدتي نهاية اليوم تعود أنت إلى بيتك وعائلتك ، زوجة جميلة تحبّك وطفلة تستمدّ من رائحتك أمان الحياة .

كيف استطعت فعل هذا وأنت تزعم أنك تحبّني؟!

كيف تُحب امرأة وتعيش مع أُخرى؟!

كيف يفعل الرجال ذلك بكل بساطة؟!

يحبّ واحدة وينام مع أخرى غيرها دون أن يعترض قلبه ، يخون كجُزء من روتينه اليومي . يعيش منفصلا عن ضميره فلا يقضّ مضجعه الندم ولا تؤرّقه الحسرة ، ولا يخاف الفضيحة!

أردت أن أجرحه وأنتقم عن عمري الذي ضاع في حُبي له بالكيد الذي استعظمه الله . كيد امرأة استحال الحُب في داخلها إلى غضب! ، فكّرت كثيرًا بأن أُخبر زوجته عن خيانته بعد أن حصلت على رقم هاتفها ، كُنت سأتواصل معها برقمي الآخر الذي لا يعرفه إلا «بدر» وأقول لها عن كُل شيء مع دلائل مصوّرة ، لكن في كل مرّة أفتح صفحة محادثتها أتأمّل صورة «بسمة» الصغيرة وهي تبتسم للكاميرا وفي عينيها براءة تُذيب الروح ، تهزمني ملامح «بدر» في وجهها وأضعف ، فيرقّ قلبي وتخنقني الغصّة ثُم أغلق هاتفي وأنفجر بكاءً .

هناك احتمال ضئيل بأنه يحبني فعلاً ، وهذه الضآلة تُفرحني حدّ الوجع وتؤذيني جدًا!

ماذا لو آمنتُ بهذه الضالّة وأخبرته بالحقيقة ، هل سيتغيّر شيء؟!

ماذا لو أن الأمر كله كان يعتمدّ علي؟

لو أني أقدمت على الخطوة الأولى وكشفت عن هويتي واعترفت بكل شيء،

هل سيُنهي هذا اللعبة؟!

وننزع عن بعضنا الأقنعة والقشور ونتعرّى من الكذب والخداع ، ونتطهّر من ذنوبنا بالاعتراف ثُم نبدأ من جديد؟ . .

- مرحبا ، أنا «مزنة» بنت خالتك ، وأحبّك جدًا .

كتبتها مراتٍ عديدة ولم أجرؤ على إرسالها ، الأمر صعبُ جدًا علي لأنني لست رجُلاً ، لا أستطيع التفكير بنفسي فقط دون أن يشمل ذلك العائلة والقبيلة معًا ، يجب أن أكفر بقلبي ومشاعري وأؤمن بأني امرأة مجرّدة من العاطفة لأكون عفيفة وطاهرة من أجل رجُل غريب سيكون زوجي في يوم ما . العاشقات في هذه البلدة مطلوبات للعدالة ، كسرنَ قانون

القبيلة وارتكبنَ خطيئة الحبّ ، قاومنَ القيود وركضنَ وراء المنوع والمحظور من أجل قلوبهن الضعيفة ، لن يجدنَ الأرض التي تستقبل خطواتهنّ الفَرِحَة بالاحتفال ، سيُعاقبنَ بالنفي والتخلّي حتى تتيبّس أرواحهنّ الغاضبة .

أهوّن على نفسي حين أضع اللوم كله عليّ، فأنا قريبة لأعاتبني وأخاصمني وأصرُخ في وجهي وأعاقبني بالحرمان من الطعام، أستطيع أن أنفّس عن غضبي وأبكي ثُم أعود إليّ وأتكوّر على نفسي حتى تغشاني طمأنينة السماء وأنام.

أستطيع تجاوز هذا كله وحدي، لو أنني ألومك لما فعلت شيئًا، سألومك فقط بيني وبين نفسي، لن أستطيع أن أعاتبك إلا بالرسائل الورقيّة التي لن تصلك. فأُحرق قلبي أكثر وأنت لا تدري عن شيء.

يجب أن ألوم نفسي كي أتصالح مع ذاتي ويمضي كل هذا بسلام.

إن لم أنفُض الحُزن عنّي وأنهض، ستفوتني قهوة أمي وأحاديث أبي التي لا تنتهي، سأضيّع على نفسي مُتعة الاجتماعات العائليّة في منزل عمّي، سيضحك الجميع وأكون وحدي غارقة بالتعاسة، سيأكل الجميع ما لذّ وطاب وأنا أبقى جائعة، سيذهب الجميع لمنازلهم وينامون وأعود أنا لحياتي البائسة وليالي الأرق!

على هذه المهزلة أن تنتهي . أمامي الكثير لأعيشه ، نعم ، لقد أخطأت وهذا أمرٌ وارد لأني إنسانة ، لمَ يجب أن تنتهي حياتي إذا تعثّرت وسقطت على وجهي؟!

لمَ يتصوّر الجميع أني «ملاك» ويتوقعون مني الأفضل دائمًا؟

لمَ الأخطاء ممنوعة عليّ ، وإن ارتكبتها فأنا ابنة غير صالحة ، وماذا يعني لو كُنت فعلاً غير صالحة؟!

هل هذا يحرمني الحقّ بأن أعيش وأحيا؟!

هل يمنعني من أن أعود شامخة بعد السقوط؟

من الإنتصار بعد سلسلة من الهزائم؟!

هل سأكون من المغضوب عليهم للأبد!

لقد أخطأت واستمراري بالغرق حُزنًا لن يغيّر هذه الحقيقة . يجب أن ينتهي كل شيء . أحرقت ذاكرة الهاتف بكل ما فيها من صور ومحادثات مليئة بالحبّ والغزل ، أقمت عزاءً إكرامًا لقلبي .

وقفت بصلابة أنظر لماضيَّ ببرود وهو يحترق . ألقيت نظرة أخيرة على شريحة الهاتف قبل أن أُرميها وينتهي عهد «بدر» رسميًا من حياتي .

مرّت مراسم الدفن دون أن تذرف عيني دمعة واحدة!

جلست في مـزرعـة أبي إلى أن ازرقّت السـمـاء ، كُنت صامتة طيلة الليلة ، حتى الصخب الذي كان داخلي انطفأ . شعرتُ بخِفّة وكأنني خرجت للتوّ للحياة . عُدت إلى غُرفتي ونمت نومة طويلة ، وكأني لم أنم منذ أعوام . نمت دون أن تؤرّقني فِكرة أو احتـمـال ، دون أن يُقلقني شعور أو تأسرني ذِكرى . نِمْتُ بطمأنينةٍ الجنين في جوف أمه .

تحررت من شبح «بسمة» الذي تلبّسني لثمان سنوات ، عُدت إلى ذاتي ونفسي . عُـدت إلى «مـزنة» التي أدهشتني شجاعتها ، كيف استطاعت أن تبقى متماسكة دون أن يهزّها شيء ، كيف لم تخف الفقد والحنين ، ألقت كل ماضيها وراء ظهرها واستدارت للحياة .

لم أصدّق أني استطعت فعل ذلك وأنا التي كان يُرعبني مرور يومٍ واحد دون أن أسمع صوته ، لم يعُد وجوده في المنزل يُثير فيَّ أي اهتمام ، ما عُدت أركض كي أجهّز القهوة والشاي

بحرصٍ وحذر ، ما عادت النافذة تُغريني للاقتراب ، حتى صوته الذي كان يجعل قلبي يخفق بشدّه فقد سِحرُه عليّ!

غريب . .!

كيف تغيّر كل شيء بلحظة واحدة ، اختفت مخاوفي وصرتُ باردة كالموت!

ولا يخفى عليَّ أن البرود هو قمّة الوجع ، وأنني في أقصى درجات الحُزن أفقد شعوري به ، وكلما زاد الأذى تخدّرتُ أكثر .

أظُن بأني وصلت مرحلة ما بعد هذا كله معك . لا أجزم أن تجاوزك سهلاً ، لكن أستطيع الاعتراف أن نسيانك ليس بمُستحيل ، ليس بعد أن رأيتك آخر مرّة تلاعب «بسمة» الصغيرة في سيارتك وتجلس إلى جوارك زوجتك ، ليس بعد أن رأيت «شهد» تضع يدها على بطنها الذي بدأ يكبُر للمرّة الثانية . ليس بعد أن أدركت أنك تجاوزتني فعلاً منذ أعوام وأنا التي كُنت عمياء في حُبك لدرجة أني لم أرَ شيئًا واضحًا كهذا . ليس بعد أن رأيت الصور التي التقطتها زوجتك في طريق السفر ، كيف كُنت تُمسك يدها باهتمام وكأنها أثمن ممتلكاتك ، ابتسامتك لها وأنت تجلس أمامها في طاولة الطعام ، الشموع وأكواب العصير والعبارات الحميميّة التي كانت تكتبها من أجلك .

كيف لا أنساك بعد هذا كله؟

كيف لا يموت قلبي وأنا أرى كل هذا يحدث أمامي؟

كيف لا أبتعد وأهرُب منك وأنا محرومة من حقّ الغضب والغيرة؟

كيف لا أكون باردة وتتخشّب أطرافي وأنا أرى المكان الذي تمنّيته قد استوطنته امرأة غيري وبكامل رغبتك؟

لم يعُد نسيانك وتجاوزك اختيارًا ، صار مفروضًا عليّ .

حُبي لك كان مرضاً وشُفيت منه ، علاقتي بك لم تزدني إلا بؤسًا وتعاسة . بكيت معك في قمّة الوجع ولم أبكِ وأنا في قمّة السعادة . وأكثر ما كان يؤلمني هو أنك لا تدري عن شيء ، كل معاناة عشتها معك كانت بيني وبين نفسي ، تعبتُ مراتٍ عديدة وشعرتُ بالضعف والانهزام ومع ذلك كُنت أتحدّث معك وكأن شيئًا لم يكُن ، كُنت حريصة جدًا على مزاجك وأخاف من اللحظة التي أفسده عليك لذلك فضّلت أن أضحك معك وأمتصّ منك مشاعرك السيئة وأستبدلها بأخرى تُنعش روحك وتترُك في قلبك أثرًا كالقُبلات ، ثُم ألتفت عنك لأعيش حُزني وحدي . أحببتُك بتفانٍ استرخصتُ به كل شيء مقابل إسعادُك .

صدّقني لن تجد امرأة تحبّك كما أحببتُك أنا ، ليس تباهيًا وإنما لثقتي بذكاء الأخريات!

-٥-

«الشخص الذي صيّر قلبك صحراء لن يقدِر على أن يخلق فيه جنّة» .

حين قابلت «شهد» لآخر مرّة كانت مُختلفة ، تبتسم بشحوب وعلى عينيها شرود غريب ، لم تعُد كما عهدتها متوهّجة ، كنت أتأمل ملامحها خفيةً وأرى فيها حزنًا مفضوحاً رُغم أنها تحاول أن تُخفيه بالضحكات الباردة ، حتى حضورها كان مختصرًا ، غادرت في وقتٍ مبكّر على غير عادتها . لم تكُن بهذا الشكل حين كانت «بسمة» تنمو في داخلها ، لمَ تبدو الآن وكأنها على وشك الموت؟!

لم أستطع تجاهل شعوري بالذنب ، أحسستُ وكأني أنا من قتلت روح الحياة داخلها ، حاولت تجاهل هذا الشعور لكنه بدأ ينخر قلبي .

ما شأني أنا بها؟!

لمَ أفكّر بها الآن في الوقت الذي يُفترض بي فيه أن أفكر بنفسي؟

لمَ تنازلتُ عن أنانيتي والتفتُ عن المرايا لأ نظُر إليها؟

كيف صار حزنها الآن قضيتي وهمّي الأعظم؟!

فتحتُ صفحة المحادثة الخاصّة بها كثيرًا ، كانت تغيّر صورتها بشكل يوميّ لرمزيات حزينة ، حتى الحالة الكتابيّة تزداد بؤسًا يومًا بعد يوم . ترددت بالكتابة لها ، أكتُب حرفًا ثُم أمسحه وأرمي الهاتف لأتوقّف عن المحاولة ، كُنت أفعل هذا كل يوم حتى تفاجأت بـ «يكتُب الآن . . .» . فتجمّدت في مكاني . توترتُ كثيرًا شعرتُ وكأن سِرّي قد انفضح!

كُنت على وشك أن أغلق هاتفي من فرط القلق ، لكنها أرسلت لي :

- «أهلين «مزنة» . . كيف حالك؟»

قلِقة ، متوتّرة ، ماذا عسى حالي أن يكون وأنا أستقبل رسالة من زوجة الرجُل الذي أحببتُه؟!

مرّت ثلاث دقائق دون أن أرُد عليها ، كُنت أعيش فيها أشدّ درجات الحيرة ، وأخيرًا استجمعت قواي وكتبت لها أني بخير ، واستمرّت المحادثة بيننا كِذبةً وراء كِذبة ، كانت تكتب بتلقائيّة وكأنها تتحدّث مع صديقة قديمة ، أعادتني للماضي الذي كُنت أهرُب منه طيلة الفترة الماضية!

اختـارتني أنا من بين كل بنات العـائلة لأكـون ملجـأها الخاصّ . تجاهلت صديقاتها وأخواتها واختارتني أنا ، حبيبة زوجهـا ، هل يُعقل أنهـا عرفت شيءً عني وتحاول أن تكشف الحقيقة بهذه الطريقة؟

تتظاهر بأنها صادقتني فجأة وصارت تتحدّث معي عن مشاكلها وهمومها حتى أبوح لها بكل شيء تُريد أن تعرفه ، هل تحاول أن تجعلني أشعُر بأني أسوأ إنسانة على وجه الأرض؟

إن كانت تحاول أن تفعل هذا فقد نجحت بذلك . أشعُر بأن طينتي ممزوجة بالعفَن ، طيبتها معي تجعلني أنفُر من نفسي ، كيف سمحت لكل هذا بأن يحدُث؟! لمَ الآن وبعد أن تطهّرت من ذنوبي أعود لأعيش مهزلةً أُخرى وبكامل إرادتي؟!

لا يُمكنني إنكار أن جُزءاً مني استـمرّ بدافع الفضول ، أردتُ أن أعرف «بدر» من زاوية أُخرى ، كيف يعيش مع عائلته وكيف يقضي يومه ، أردت أن أتعرّف على تفاصيله التي كانت تُثير اهتمامي وتصير أرقاً لذيذاً!

مزاجه حين يعود من يوم عمل شاق ، ملامحه بعد أن يشرب أوّل فنجان قهوة ، وجهه حين يستيقظ من النوم .

كيف يفضّل طعامه؟

ملابسه التي يستريح بها؟

وأشياءه الصغيرة التي يحرص عليها؟

لا أدري ما إذا كانت «شهد» تعرف عن أهدافي هذه لكنها لا تتردد أبدًا بالإجابة عن أسئلتي التي أضعها بين السطور ، وكأنها تقرأ نواياي من ثرثرتي ونصائحي لها ، رُبما تثق بي أكثر مما يجب ورُبما تكون ذكيّة أكثر مما أظُن ، لكن هذا لم يمنعني من الاستمرار ، كُنت ألعب دوري بأمانٍ ورويّة ، حتى الآن لم أُعطها أي سبب لتشُكَّ بي .

شرّعت لي أبواب حياتها على مصراعيها دون حتى أن أبذل أي مجهود عدا أن أمثّل معها دور الصديقة الطيبة التي تحبّ وتهتمّ ، وأنا بارعة جدًا في هذا . أعرف كيف أمتصّ منها الاستياء والغضب وكيف أعطيها المساحة الكافية للفضفضة دون أن أجعلها تقلق من احتماليّة أن أحكم عليها أو أُسيء فهمها ، كانت تأتي إليّ كالبركان الثائر وترحل باردة مُطمئنّة ، مِثل جنّة .

في كل مرّة كانت تُخبرني فيها عن «بدر» كانت تتحدّث عن رجلٍ لا أعرفه ، رجُل غاضب وعنيف ولسانه قذِر وكأنه لم

ينطُق بالكلام المعسول قطّ . رجُل يعود للمنزل حاملاً معه هموم العالمين أجمَع ، صمتُه يؤذي وكلامه يقتُل!

كانت تُخبرني عن رجُل يفتقر الأخلاق والأدب قبل أن يكون عديم العاطفة! حاولت تجاهل قلبي وهو يرفُض ويُعلن اعتراضه على كلامها لكنني لم أستطع ، لا أصدّق أن «بدر» فعلاً رجُل سيء إلى هذا الحد! ، أعرف أنه ليس مثاليًا لكنه ليس بهذا السوء ، اعترضت على كل شيء قالته لدرجة أني بدأت أقتنع أنها فعلاً تعرف قصّتي معه وتحاول أن تشوّه صورته في عينيَّ حتى أكرهه ، لا يُمكن أن أتصوّر «بدر» الرجُل الذي تتدفّق الحنيّة من صوته وفي عينيه بحرُ عواطفٍ هائج ، يُمكن أن يكسر قلب امرأة تحبُه أو حتى أن يترُك به خدشًا!

كُنت على وشك الانفجار بالدفاع عنه كعاشقة حمقاء لكنها أخبرتني أن هذا «التغيّر» في طبعه بدأ يقتل الحُب بينهما ، فأدركت حينها أنني لم أكُن مُخطئة حين شعرتُ بالذنب ، عرفتُ الآن السبب الذي جعله رجلاً قاسيًا إلى هذا الحدّ .

إنه يفتقدني . .!

اشتاق إليّ . .!

إلى حبيبته التي كانت تنسى نفسها وتسعى جاهدة لإسعاده ، عرفت الآن أنه ضائع وتائه ولا يدري ماذا يفعل عدا أن يقسو على «شهد» التي تذكره دائمًا بحبيبته دون أن تسعى لذلك ، يحاول أن يعاقب «بسمة» التي تركته وغابت فجأة بصورتها التي يعيش معها .

شعرتُ بشيء من اللذّة في داخلي حين عرفت ذلك ، أعرف أن ذلك يجعلني امرأة سيئة جدًا ولا يزعجني هذا الأمر ، ليس في هذه اللحظة على الأقل!

كُنت أبتسم خفيةً بانتصار وأنا أقرأ رسائلها الطويلة عن تعامله السيء مع زوجته ، وكيف صار يكره البقاء معها ويبحث عن أي سبب ليخرج من المنزل ، صار يهرُب منها كي لا يراني في ملامحها فيواجه حُزنه مباشرةً ثُم لا يستطيع أن يعاتب ويشكو ثُم يرمي نفسه على صدري مثل طفلٍ صغير . يتحاشاها لأنه خائف ومرعوب ، ويعرف تمامًا أنها لن تكون له الأمان الذي يحتاجه .

كُنت أعيش أقصى درجات النشوة وأنا أرى جبروته العظيم قد انكمش وصار هشًا من بعدي ، عرفتُ بأن قدري بالنسبة له أكبر مما ظننت ، كان يحتفظ بي ليستلذّ بالحياة ، كُنت أنا الروح التي يراها في صورة زوجته والآن بعد أن تركته أحسّ بأنه فقد كل شيء يُعطي حياته معنى .

صار جافًا وقاسيًا وأعرف كيف أجعل كل هذا التصحّر الذي يسكنه يخضرّ ويُزهر . لكني لن أفعل ذلك ، لن أتنازل بهذه السهولة وأعطيها مفاتيح سعادته ، لن أعلمها الخلطة السريّة التي صنعتها بنفسي حتى وإن كانت ستُنهي البؤس الذي تعيشه معه!

لن أكون العاشقة الحمقاء للمرّة الألف ، سأضع نفسي أولاً وقبل كل شيء ، سأكون أنانيّة كما كُنت معي وسأفكّر بسعادتي وراحتي قبلك!

هل تظُن بأني سأُخبرها كيف تأخُذ حزنك وترميه بعيدًا ثُم تغمرك بالدفء في صدرها حتى تفقد شعورك بالعالم؟

هل تظُن بأني سأُخبرها بالسِر الذي يجعل تلك العُقدة في حاجبيك تختفي بغمضة عين؟

هل تظُن بأني سأعطيها وضوحَك ببساطة؟

هل تظُن بأني سأخبرها بكل أسراري العاطفيّة حتى تعود رجلاً رائعاً وتعيش معها في سعادة أبديّة ثُم أصير أنا نسيًا منسيا؟

سأكون قد حكمت على نفسي بالموت إن فعلت كل هذا .

العاشقة التي كانت نائمة في داخلي استيقظت وصارت شيطانة بقرنين طويلين ، وجهها الأبيض صار أحمر كالنار وعيناها التي كُنت ترى فيهما روحك صارت تعكس الجحيم الذي يسكنها ، حبيبتك التي كانت ملاكًا يعيش ليسعدك صارت عفريتًا يسعى ليسحق ما تبقى لك من حياة ، وهذا الأمر سيكون أسهل من شُرب الماء .

-٦-

«يأخذ الرجل من تجارُب الحب الخبرة ، وتأخذ المرأة منها الماضي الأسود» .

لا أدري لمَ تحوّل حُبي العظيم الذي كُنت أحمله لك في داخلي إلى عِداء . ليتني كرهتُك لكان الأمر أسهل عليَّ ، لن أستهلك طاقتي كلها عليك ، سأكون مشغولة بنفسي لكني وكعادتي أمامك أنساني وأهتم بك ، حتى وإن كانت مشاعري سوداء .

كيف تفعل ذلك بي؟

حتى عندما صِرتُ المرأة الشريرة في الحكاية لا يزال سِحرُك مؤثّرًا بي . أعلم أن مسعاي للانتقام لن يجعلني أُشفى ولن يمحيك من تاريخ حياتي ، وأعلم أنه ما هو إلا دلالة على أن مشاعري تجاهك لم تمُت كما كُنت أتظاهر ، لو أني نسيتك كما كُنت أحاول إقناع نفسي بذلك لما سعيت ورائك الآن ،

لكُنت شيئًا لا يهمني حتى . لكن عُمري الذي ضاع معك لن يعود ، وهذه الحقيقة تجعلني غاضبة ، حانقة ، أكاد أنفجر من الغيظ وهذه المشاعر تصير وقوداً ، فتدفعني أكثر للانتقام ، حتى حين يستيقظ ضميري وأرى أمامي صورة «بسمة» الصغيرة ، يتعثّر بذكرى لاذعة عشتُها معك في الماضي فيفقد الوعي مرّة أخرى .

تلاشت كل مخاوفي بأن يكون ماضيَّ مفضوحًا أمام «شهد» وأدركت أنها ليست إلا امرأة خائفة تبحث عن الطمأنينة التي فقدتها . لكنها لجأت للشخص الخطأ وهذه ليست مشكلتي ، فأنا لم أدفعها لتجعلني صديقتها ، لم أجبرها على أن تكون أمامي كتابًا مفتوحًا ، هي من فعلت كل ذلك بكامل قناعتها .

كم أبدو قاسية وشريرة حين تدور هذه الأفكار في رأسي وأُحاول إقناع نفسي بها ، لكن هذا لن يمنعني من انتهاز الفُرصة التي قدمتها لي الحياة للانتقام ، سأفعلها حتى وإن كان ذلك سيجعلني امرأة بشعة للغاية .

وكيف لا أفعلها؟!

أنا التي وصلت مشارف الثلاثين وحيدة وتعيسة وأعيش حياة باردة وموحشة ، وأنت مُحاط بعائلة تحبّك وتعيش حياة رائعة كلها فرح .

كيف تتوقّع مني أن آخذك من عُتمة الضياع إلى ضوء الأمان؟

ثُم أراك تمضي بعيدًا بسعادة عارمة وأنا مرميّة على أرصفة النسيان .

كُنت حريصة جدًا على أن تكون نصائحي لـ «شهد» مسموعة ، أردتُها أن تطبّق كل شيء أقوله حرفيًا حتى أتأكّد من أني أصبتُ الهدف ، كُنت أرى قلبك أمامي مثل لوحة الرماية ، أحرُص دائمًا أن أركّز بالمنتصف قبل أن أُطلق رصاصتي .

ولحسن حظّي أن زوجتك كانت من النساء اللواتي لم يتعرّفن بعد على دهاء وكيد الأخريات ، فكان من السهل جدًا أن أجعلها تصدّق بأن هدفي هو سعادتها فقط . لم تسألني أبدًا عن مصادر المعلومات التي أقدمها لها ، ولا حتى عن اسم الكُتب وعنوان المقالات التي كُنت أدّعي بأني قرأتُها ، رُبما لقلّة حيلتها بعد أن أحسّت بأنها على وشك أن تفقد سعادتها للأبد كانت مستعدّة لفعل أي شيء مقابل أن تعود إليها كما كُنتَ ، رجُلاً طيّبًا وأبًا رائعًا ، يحبها ويحبّ ابنته جدًا .

في كل مرّة تعود إليّ «شهد» بأخبار حزينة كُنت أُقيم احتفالا في داخلي ، لأني أعرف ما تشعُر به ويزداد يقيني

بأنك صرت أكثر تعاسة من قبل ، فأنام مطمئنّة وقلبي يستريح . كُنت أشعُر بأني على وشك استعادة نفسي ووقتي ومشاعري التي أضعتُها معك رُغم علمي أن هذا الأمر ليس ممكن الحدوث ، لكني لم أتوقّف!

لم يكُن لدي شيء ثمين لأخسره ، لهذا لم أهتمّ كثيرًا بعواقب أفعالي!

في الحقيقة أنا لم أفكّر حتى بالعقاب ، ظننتُ بأن هذه هي عدالة السماء . بهذه الطريقة كُنت أطعمك من الطبق ذاته الذي كُنت تُطعمني إياه لثمان سنوات .

كُنت متأكدة تمامًا بأني على صواب ، حتى وإن كان الضرر الذي كُنت أسببه يجرح أشخاصًا أبرياء ، لم أهتم طالما أن هذا يعني بأن ألمك سيتضاعف عشرات المرّات .

كُنت أنتظر اللحظة التي ينتهي فيها كل شيء ، أردتُ أن أراك خاسرًا ومنكسرًا أكثر ، حاولت أن أدفع «شهد» بأن تتركك لكنها كانت متمسكة بك ، تذكّرني بنفسي كثيرًا ، حُبها اللامحدود لك ، اهتمامها بك وحرصها على الاحتفاظ بك حتى وإن كُنت قاسٍ معها ، لاحظت بأن مشاعرنا تتشابه جدًا ، كُنت مثلها في أوقات الخصام ، تسقُط كرامتي مقابل أن أرى ابتسامتك ولو للحظة واحدة ، مقابل أن أسمع صوتك وأستلذّ

بالدفء الذي يسكنه ، كُنت أحـبّك إلى هذه الدرجـة التي تفوق الكبرياء .

ومع ذلك خـسـرتني ولن يهـدأ لي بال حـتى أجـعلك تخسرها هي الأخرى .

كُنت أعيش أخطر مرحلة في هذه اللعبة ، وقبل أن تنتهي اختفت وسيلتي الوحيدة للانتقام ، "شهد» لم تعُد تكتب لي شيئًا ، غابت فجأة وهذا الأمر أرعبني ، خفتُ أن أكون قد انفضحت ، ومن فرط الرهبة التي مررتُ بها أعلنتُ التوبة إلى الله!

كُنت أصلّي صلاتي وكأنها المرّة الأخيرة!

أبكي في كل سجدة وأدعو بتذلل وخضوع بأن يهوّن الله علي هذه المصيبة ثُم أسرُد وعودًا بأن لا أكرر غلطتي ، أردتُ أن أطمئن بأن سرّي الكبير لم ينكشف ، لم أستطع أن أفعل شيئًا حتى حين أسأل أمي عن الأخبار بدافع الاطمئنان تُجيب بأنها لا تعلم شيئًا ، فيزداد قلقي ويرتفع صوت أنيني في السجود .

صرتُ ضعيفة وهشّة بعد أن كُنت صلبة وشامخة!

انكسر كل شيء داخلي وأدركت بأني لم أكُن أسعى إلا لدماري ، كُنت أتخبّط كعاشقة مراهقة تشعُر بالغيرة لأوّل مرّة ،

كل تصرّفاتي لم تُثبت إلا شيئًا واحدًا وهو أن مشاعري تجاهه لم تمُت!

أردتُ أن أهرُب من هذا كله ، تمنّيت لو أستطيع نسيان كل شيء والعيش بذاكرة جديدة ، تمنّيت لو أستطيع إصلاح الدمار الذي سببتُه دون أن يجعلني هذا سيئة أمام نفسي والآخرين ، أردتُ أن أركض فقط ، حتى وإن كُنت لا أعرف وجهتي بالتحديد أردتُ أن أبتعد فحسب . لم أستطع تحمّل القلق الذي كُنت أعيشه كل يوم ، حياتي صارت مُتعبة جدًا ، ليتها تنتهي!

لمَ قـصص الحُب التي نعـيشـها لا تُمر مـرور الكرام حين تنتهي؟

لمَ يجب أن يكون هناك قاتل ومقتول؟

لمَ لا نحبّ بعضنا بسلام وينتهي كل شيء بيننا بسلام دون حروب وفخاخ تهدُف للقضاء على الطرف الآخر؟

لن يحدث هذا ما دام الحبّ يُخفى كالخطايا والذنوب، كل ما أعرفه عنه هو ما أراه في التلفاز وأقرأ عنه في الروايات، عاطفة جميلة تجمع رجُلاً وامرأة ويُباركُها الربّ، ظننتُ الحبّ بهذا الطُهر والنقاء، لكن الذي اكتشفتُه كان كارثة!

أحسدُ «بدر» على قدرته الخارقة بأن يعيش معي حياة عاطفيّة مشبعة بالغزل والحبّ، وفي الجانب الآخر يعيش حياة كما يفعل الآخرون، تزوّج واستقرّ في منزل يحتوي عائلة تخصّه، كيف استطاع أن يفعل ذلك دون أن يشعُر بالتشتت أو الانفصام!

لمَ لا يشعر الرجال بالأذى النفسي حين يخونون؟

كيف لا يقتله الحبّ في عيون «شهد» وهي تنظُر إليه ولا ترى إلا الرجُل الذي تحبه ، بينما هو يرى بها امرأة أخرى لا يستطيع الحصول عليها .

كيف لا تمتعض معدته وينقبض قلبه حين تكون معه في أشدّ اللحظات حميميّة ويتخيّلها الأخرى التي يريدها؟

كيف استطاع أن يفعل ذلك دون أن يفقد إنسانيته وضميره!

كـان عليّ أن أُنهي المعـاناة التي أعـيـشـهـا بأي طريقـة ، فكتبت رسالة اعتراف طويلة ، كتبت فيها كل شيء فعلته ، عرّيت نفسي وكشفتُ عن ذنوبي كلها ، كفرتُ بالرحمة التي سـترتني لفـترة طويلة وأعلنت بأني مُـخطئـة ولا يُخـجلني الاعـتراف والاعـتـذار ، كـتـبت كل كلمـة وأنا أعـرف بأني لن أواجه قارئ الرسالة ، كتبتها بنبرة الوداع الأخير ، كُنت سأبعثها ثُم أنام نومة ستجعل ظهري يستقيم أخيرًا في قبري . كُنت على وشك الهرب من مصائبي إلى ظُلمة أبديّة تعزلني عن العالم والناس وهذا ما كُنت أحتاجه ، لكن رنين هاتفي أفسد عليّ الخطّة ، اتصلت بي «شهد» أخيرًا لتقول لي خبرًا كان كالرصاصة على قلبي .

- أنا تطلّقت

هذه المرّة لم أحتفل . . انتهيت .

-٧-

«نحن نعاني من عُقدة خوف ؛ خوف من الفرح ، خوف من الحبّ ، خوف من الشفافية ، خوف من البساطة ، خوف من العين ، خوف من رأي الناس ، خوف من كل شيء إلا الله» .

لمَ لا أشعُر بالسعادة الآن؟

كل شيء سعيت من أجله تحقق ، "بدر» الآن صار رجُلاً وحيداً وتعيساً مثلي . تفكك عالمه الذي يحبّ وصار يعيش منفصلاً عن قلبه . لم ينطفئ شعوري بالحُزن بل استحال إلى اكتئاب ، لكن الذي أدهشني هو أن غضبي قد انطفأ ، رغبتي بالانتقام التي كانت مسيطرة عليَّ مثل تعويذة انفكّت عني ، صرتُ أشعُر بحزنٍ عظيم يتمدد في داخلي . فقدت الرغبة بالحياة ، صرت أنام وأستيقظ وأنا حزينة وخائفة ، تُرعبني نغمة الرسائل ويُفزعني صوت جرس البيت وهاتف المنزل ، شعرتُ بأني أعيش آخر اللحظات قبل أن يكشف الناس حقيقتي ،

قبل أن يعرفوا بأني لست مجرّد امرأة طيبة تستحقّ كل الخير ، سأفقد تعاطفهم معي لأني الوحيدة التي لم تتزوّج بعد من بنات العائلة ، لن يكون لي من دعواتهم نصيب بعد أن يظهر وجهي الحقيقي أمامهم ، سأُنفى وأكون منبوذة . أكثر ما يوجعني هو وجه أمي التي لا ترى فيَّ إلا الابنة الصالحة التي تنازلت عن حقها بالحياة لتخدم والديها ، إنها فخورة بي جداً ، مؤمنة بأني لن أفعل العيب والخطأ لأني في نظرها ملاكٌ طاهر . لا تدري بأني شيطان على هيئة بشر!

ابنتكِ يا أمي لم تعُد بريئة ، أحبّت وأخطأت وتعثّرت كثيرًا لكنها كانت تعود دائمًا وتقِف من جديد ، هذه المرّة لم تفعل ، لم تستطع حتى أن تتحرّك ، بقيَت في مكانها تعيش حالة ارتياب موحشة .

أرجوكِ يا أمي لا تتخلي عني حين يفعل الجميع ، أنتِ الوحيدة التي أؤمن بأنها ستحبّني مهما حدث ، أنتِ لم تتوقّفي عن حبّ «محسن» حين بدأ يدخّن رُغمًا عنكِ ، رُغم تهديدكِ له بأنكِ لن ترضي عنه حتى يُقلع عن هذه العادة لكنه لم يفعل ، ومع ذلك لم تتوقّفي عن حبّه والاهتمام به والسؤال عنه حين يتغيّب عن المنزل ، حتى «متعب» لم يمنعه لسانه البذيء وطبعه السيء من أن يحظى باهتمامكِ وحرصكِ .

هل ستحرميني من حبّكِ إذا عرفتِ حقيقتي؟!

أعلم أنكِ تستائين مني حين أنام في وقتٍ متأخّر وأفوّت صلاة العصر ، وتغضبين حين أنسى الغداء على النار فيحترق ، لكنكِ لم تتوقّفي يومًا عن حُبي .

هل ستفعلينها الآن؟!

لا أدري كيف سأستمرّ بالحياة إذا خسرتكِ يا أمي . لن أحتمل أن أرى الخيبة في عينيكِ ، لا أتخيّل كيف سيكون شعوري حين تنزعين عني رداء الملائكة وترين قُبحي وبشاعتي ، هل سأُثير فيكِ التقزز أم أنكِ ستأخذينني إلى صدركِ وتُعيديني إلى الطمأنينة التي كُنت أعيشها داخلكِ؟

أنا خائفة جدًا يا أمي . .

أتمنى لو أستطيع الهروب من العالم إلى حضنكِ ، ليتني أخبركِ بكُل شيء وأعلم أنكِ لن تكرهيني أو ترميني بعيدًا عنكِ .

لا أملك اليقين الذي يجعلني أغامر وأبوح لكِ بالحقيقة ، كل ما أستطيع فعله هو أن أخاف وأبكي فقط ، هل يُرضيكِ حالي يا أمي؟

كل يوم يموت جزءٌ مني فتزداد ظُلمتي ، لم يبقى إلا حُبكِ مُضيء مثل شمعة في بطن كهفٍ موحش .

ليتني ما عرفت الحُب!

ليت هذا الخوف جاء مبكّرًا ، تحديدًا بعد أن عرفت أن «بشار» هو «بدر» ابن خالتي فتوقّفت عن العبث والتفتُّ لحياتي ، مَن يدري قد أكون الآن في بيتي ألاعب أطفالي ، حتى وإن لم أتزوّج متأكّدة بأن حالي سيكون أفضل . سأكون مشغولة بشيء آخر ، لن أخاف من الفضيحة ، لن أبكي على نفسي ، لن أعيش برهبة وكأني على موعدٍ مفاجئ مع الموت!

فقدت القُدرة على مواساة «شهد» التي لم تتوقّف يومًا عن مراسلتي ، ولعلها أحسّت بأني تعبت فبدأت تبتعد ، لا تدري بأني أشدّ وجعًا منها وحاجتي للمواساة تفوق حاجتها ، لا تدري بأنها تتحدّث مع الشخص الذي تسبب بهذا الدمار كله ، حزينة من أجلها لكن حُزني على نفسي أعظم ، وجعها محدود لكن وجعي متأصّل في داخلي ، يجري في عروق دمي ، يعجن روحي ، وعلي أن أعيشه كل يوم بصمت ، لا يحق لي البُكاء والشكوى مثلها . لا أحد سيفهم معاناتي ، سيلومني الجميع إن تكلمت ، يُرعبني التفكير بما سيحدُث لي إن ظهرت حقيقتي ، سأفقد كل شيء وأعيش في عُزلة قاتلة .

صِرت أنتظر اليوم الذي سأواجه فيه عواقب أفعالي ، توقّعت في أي لحظة أن تحدُث لي مُصيبة فأُدرك حينها أنها عدالة السماء . تمضي أيامي وأنا في توجُّس مُرهق ، الأصوات تُثير فيَّ الفزع ، الطرق على باب غُرفتي ، نحنحة أبي حين يدخُل البيت ، وصوت أمي حين تُناديني ، قلبي كان يخفُق

برهبَة مثل سجين يمشي إلى ساحة الإعدام . لكن خوفي دائمًا يتبدد حين أرى وجهها هادئًا مُطمئنًا . عدا هذه المرّة ، كانت البشاشة تعلو ملامحها الطاهرة ، وحُمرة خجل تنتشر على وجنتيها ، كانت سعيدة جدًا ، عيناها تنظُران إلي بفخرٍ شديد لم أفهم سببه ، سحبتني إليها وبدأت تتحدّث معي بهدوء ، كُنت أتأمّل تفاصيل البهجة عليها وهي تقول لي الخبر السارّ ، أحدهم صعد قطار الزواج متأخرًا وجاء ليطرُق بابي ، أخيرًا تحققت دعوات أمي ، تقدم لخُطبتي رجُل أربعيني طيّب يعرف الطريق للمسجد عن ظهر قلب ، أثار إعجاب والدي فسقط كل احتمال لي برفضه .

كُنت خائفة من هذا المُنعطف الذي اتخذته حياتي فجأة ، توقّعت أن تكون هذه بداية نهايتي ، أتذكّر أن يدي كانت ترتجف وأنا على وشك توقيع عقد الزواج ، فقدت قُدرتي على التركيز ، شعرتُ وكأني أقِف في المُنتصف جامدة وكل الأشياء من حولي تتحرّك بسرعة عجيبة!

فجأة صِرت امرأة متزوّجة وانهالت التهانيّ عليّ كالمطر الغزير ، كان الأمر غريبًا جدًا ، لم أستطع استيعاب حياتي ، تغيّر كل شيء في غمضة عين ، وكان عليّ أن لا أعترض ، كُنت أمضي حيث تأخذني الرياح مثل ورقة تيبّست الحياة داخل عروقها وصارت معرّضة للانكسار . . وهذا ما حدث!

«صِرت أعيش حياتي بالتغاضي ، أستمرّ إلى الأمام فقط حتى وإن كان قلبي مشروخًا وروحي مكسورة . كل هذا سيمضي وسأكون حينها مستريحةً في قبري» .

-٨-

«كل الأشـيـاء لهـا تاريخ انتـهـاء ، أولهـا الفُـرص وأوسطهـا الصبر وآخرها المشاعر» .

استطعتُ بأعجوبة الحفاظ على هدوئي وابتسامتي أمام عيون أمي والآخرين ، تداركت فوضى مشاعري وأفكاري ، ابتلعتُ كل غصّة حاولت خنقي وبقيت هادئة معظم الوقت ، لكن كل شيء ينهار حين أعود إلى غرفتي ، حين أقِف أمام المرآة وأنظر إلى هذه المرأة الغريبة التي تتلبّسني . كانت مُختلفة لا تُشبهني ، رأيت أمامي أُخرى بمساحيق تجميل ثقيلة وفستان ضيّق ، ورأيتها مرّة مبتهجة بعد أوّل زيارة لزوجها ، كانت سعيدة جدًا بملابس قصيرة وشعرٍ مسرّح ، لدرجة شعرتُ تجاهها بالتقيؤ! كيف استطاعت تجاوز كل الخراب الذي صنعته ثُم انطلقت في حضن رجُل آخر وعاشت دور الزوجة الصالحة التي بدأت للتوّ تكتشف الحياة على يديه . كيف نسَت الجريمة التي ارتكبتها بحقّ امرأة طيّبة لجأت إليها كما يفعلن الصديقات

حين تقع إحداهُن في مأزق ، كيف صارت صراعاتها ومعاناتها الماضية شيئًا لا يستحق الذكرى الآن!

كل مخاوفها تقلّصت وانكمشت لتصير خوفًا تافهًا ، من أن لا تكون «جميلة» في عيون زوجها ، لم تعُد الفضيحة تُرعبها خصوصًا بعد أن حصلت على رقم جديد ، استدارت عن الدمار الذي تسببت به وتركت الحرائق تتصاعد ولم تشعُر ولو للحظة بالندم . على العكس كانت تعيش أقصى درجات السعادة وكأنها بدأت حياتها للتوّ فعلاً .

أدهشتني قُدرتي على نسيان الأشياء التي كانت تُسبب لي أرقًا وتحرمني من النوم بقلبٍ مستريح ، بسُرعة خارقة مُنذ أوّل اتصال من خالتي تُبارك لي الزواج ، بعدها غمرني شعور غريب ، فكرة واحدة كانت مسيطرة تمامًا علي ، أن أهرُب من الماضي الذي استعبدني لفترة طويلة وأركض للحياة التي فتحت أبوابها لي أخيرًا وجعلتني مرئيّة للناس من حولي ، رُغم أني لم أعُد أرى نفسي لكن هذا لا يهم ، المُهم أنّ الآخرين يرونني الآن ، ويلاحظون أي تغيّر مفاجئ علي ، فالكُل لاحظ أن وزني قد نقص وشعري صار أطول قليلاً رُغم أن هذا ليس بجديد ، لكنني صرت محطّ اهتمامهم ، صاروا يتأملون وجهي ولون حُمرتي وأساور الذهب التي تُحيط معصمي ، فجأة صارت الاجتماعات العائليّة ممتعة بعد أن أصبحتُ أحظى بكل هذا الكمّ الهائل من الانتباه . كُنت أعيش مشاعر لذيذة بينهم لدرجة نسيت فيها نفسي ، انطمست ذاتي تمامًا وصرتُ كما يريدون أن أكون . وحينها كل مصاعبي ومعاناتي اختفت!

انتهى عصر الإذلال والخضوع للماضي الذي انتزعته عني ورميته في صندوق النسيان، لم أعُد أشعر بالسوء مُطلقًا، في الحقيقة كُنت أرى نفسي امرأة مثالية تسعى لتكون زوجة رائعة وأكثر، هل هذا ما كُنت أنتظر حدوثه حقًا؟! هل كان «بدر» مجرّد نزوة فعلاً؟ ماذا عن شعوري بالألم وأنا أقع في الحبّ؟ ألم يكُن ذلك حبًا؟! وإن لم يكُن .. فما هو إذًا؟!

كيف أندفع لشيء أجهله وأعيشه ثماني سنوات بكامل عقلي وقلبي؟!

هل يُعقل أني أسرفت في عُمري من أجل «طيش» لا أكثر؟!

أنا لـم أحبّ «بدر» أبدًا ، أحـببت فكـرة «بدر» ، أحـببت وجود هذه الفكرة في حياتي والعيش معـها ، وأحـببت أكـثر كونها مجرّد فكرة «سريّة» مدفونة في أعماقي لا يعرف عنها أحد ، أعيشها بالخفاء وأتلذذ بها دون أن يُشعرني أحد بالخطيئة والذنب ، كـانت هذه وسـيلتي الوحـيدة لأفـرغ فيض المشـاعر داخلي ، وأعلم لو أن «بسمة» الصغيرة لم تبكِ في وجهي تلك الليلة ، لو أنهـا لم توقظني من غـفلتي وتُريني الحـقـيـقـة التي نجحت بإخفـائها عن قلبي فـترة طويلة لـكُنت الآن أتحدّث مع «بدر» بصوتٍ مخمور بالحبّ!

هل يُعقل أن تكون هذه هي النهاية؟

كيف يُمكن لشيء كان يؤذيني ويعصر قلبي من الوجع أن ينتـهي بهـذا البـرود؟ ، شيءٌ ما في داخلي يرفُض تصـديق ما يحـدُث ، رُبما هذا هو الـهـدوء الذي يسـبق العـاصـفـة ، مؤكّـد ستحدث كارثة قريبًا وتُدمرني . لكن شيئًا لم يحدث!

احتفلتُ بزواجي بسلام وانتقلت للعيش في منزلي وصار

هدفي في الحياة هو إسعاد زوجي والحفاظ على صورتي في عينيه نقيّة وطاهرة ، أردتُ أن أكون دائمًا أمامه المرأة المثاليّة التي لم يدنّسها شيء ، كان ينظُر لي بحبّ ممزوج بالفخر ، ولا يكُف عن إخباري بأني هديّة الله على صبره وعزوفه عن الزواج مبكرًا من أجل أمه المريضة ، كان مؤمنًا بأنها لو كانت على قيد الحياة الآن لأحبّتني وأحببتُها . وأنا أتسائل بحسرة : تاريخي حافل بالفضائح والكوارث الأخلاقيّة ، ما الحسنة التي فعلتُها في حياتي ليُكافئني الله به؟

في القصص والروايات ، الشرير لا ينتصر أبدًا . أظن أني كسرت هذه القاعدة وفعلت . نعم ، أرى حياتي الآن من أفخم أشكال الانتصار . حصلت على رجُل طيّب ، انتزعت عني شبح الماضي المُخيف ، صرت مرئيّة ومُثيرة للإعجاب بدلا عن التعاطف والشفقة ، أصبحت مادّة لذيذة للثرثرة في مجالس نساء العائلة ، حصلت على ما أريد وربحت .

ثُم ماذا؟!

هل هذا كل شيء؟!

رسالة نصيّة من «شهد» كانت إجابة كافية على تساؤلاتي هذه :

«مرحبا مزنة ، معليش أخذت رقمك من خالتي ، مبروك الزواج وأتمنى لك حياة سعيدة ، ودي أكلمك إذا فاضية اليوم»

-٩-

«يمضي الرجُل صلبًا في هذه الحياة إلى أن «يُعجَن» بالحُبّ»

لا أعلم ما إذا كانت «شهد» قد اكتشفت السرّ الذي سعيت لإخفائه ، ولم تقلقني هذه الفكرة في الحقيقة لأني مُدركة تمامًا أني وصلت برّ الأمان ، لكن فضّلت أن أكون مستعدة لأي شيء يهدد حياتي ، لذلك جهّزت أسلحتي ووسائل الدفاع التي قد أحتاج إليها ، ولم أنسَ تعزيز مناعتي العاطفيّة حتى لا تجد مشاعر قديمة أي فُرصة للتأثير علي أو حتى محاولة الدخول إلى قلبي .

كان علي أن أكون مستعدة لهذا الحدث ، تأهّبت للمواجهة بروح محارب ، لن أرضى بالهزيمة ، ليس بعد أن جرّبت طعم الفوز وانغمست روحي فيه . ليس بعد أن انتبه الحظّ لوجودي في الحياة وأغرقني بكرمه ، ليس بعد أن تجاوزت هزائمي

الشرسة ، هذه المرّة لا مجال للانكسار والضعف ، سأكون صلبة!

اتصلت بها وأنا وحيدة في المنزل ، أردتُ أن أواجه معركتي مباشرة وبصوتٍ جَهور دون قلق . أجابتني بنبرة خائفة جعلت الوحش الثائر في داخلي يتحوّل إلى كائن وديع ، قالت بأنها تشعُر بالضياع بعد أن أخبرها «بدر» عن الحقيقة ، حقيقته الخاصّة ، كانت تبكي بمرارة وهي تردد . .

- «بدر خاين . . بدر خاين»!

لم أصدّق أنه فعلها ، أخبرها عن السرّ وراء اختياره لاسم ابنته ، عن «بسمة» ، انقبض قلبي بشدّة وأنا أسمعها تتحدّث بألم ، قالت بأنه طلب أن يزورني مرّة أخيرة ليبوح لي بكُل شيء ، لأنه لم يستطع تحمّل تأنيب الضمير الذي صار يقضّ مضجعه ويمنعه عن الطعام ، قالت بأنه صار مختلفًا لم تتعرّف عليه حين ظهر أمامها ، كان يقِف موجوعًا وشاحبًا كالأشباح ، اختفى نِصفه وبدا وكأنه لم يأكُل منذ فترة طويلة ، حين تخيّلته بهذا الضعف لم أتمالك نفسي وحزنت من أجله!

قالت بأنه كان يتحدّث وهو ينظُر للأسفل ، فأدركت أنه يشعُر بالعار وليس الخجل كما تظُن ، أخبرها بأنه كان يعرف إنسانة اسمُها «بسمة» ، كانت أوّل فتاة يتعرّف عليها في أيام المُراهقة ، ظنّ بأنها مجرّد نزوة عابرة ، حبيبة مؤقتة يملأ بها وقت فراغه وتُشبعه عاطفيًا ، لكنها كانت أكبر من ذلك بكثير ، صارت جُزء مهمًا من حياته لم يستطع أن يتخلّى عنه ، كذب عليها بكُل شيء عدا مشاعره ، كانت صادقة جدًا لدرجة مؤذية!

الأمور ازدادت عمقًا الآن فسحبت نفسي إلى أقرب أريكة وجلستُ عليها وأنا أشعُر بنبضات قلبي تضطرب ، كلامها جرّني للوراء بعنف ، شعرتُ بموجة قويّة من المشاعر اصطدمت بي هزّتني من أعماقي ، خجل ولذّة وحُزن كبير بدأ ينخر روحي!

- تخيلي يا مزنة إنه كان يطالع بعيوني وهو يقول «أحبها» .!

شعرتُ بقشعريرة عنيفة زلزلتني ..

يحبني!

نعم . .

يحبني جدًا . .

يحبني لدرجة أنه لم يستطع أن يدفن حنينه إليَّ حتى أمام زوجته!

أرهبني هذا الحبّ العظيم الذي جعله ضعيفًا إلى هذه الحدّ ، جاء يودّع المرأة التي اختارت أن تقاسمه العُمر بحلوه ومُرِّه من أجل أخرى لم يلمسها ولم يشُم رائحتها قطّ ، كل ذكرياته معها مجرّد مشاعر دوِّنَت في رسائل نصيّة!

لم أصدّق أن رجلاً مثله له كبرياء لا يخضع قد يفعل شيئًا كهذا ، أعرف أنه يحب عائلته ويهتم جدًا لصورته في المُجتمع المُحيط به ، أعلم أنه لن يرتكب أي حماقة عاطفيّة قد تُؤثّر على نظرة الآخرين له لكنه فعلها وهذا الأمر أخافني! هل يُعقل أنه جُن وفقد عقله بسببي!

قالت أنه لن يعود إليها لأنه لا يستطيع نسيان حبيبته ، ولن يظلمها ويحرمها من العيش مع رجُل آخر يحبها فقط ،

اعتذر كثيرًا وقبّل رأسها ويديها ثُم غادر . كانت تبكي بحرقة وألم وصوتها يرتعش من الوجع .

لا ذنب لها في هذه القصّة لكن الحياة ليست عادلة أبدًا . أنا المُذنبة ومع ذلك أجلس على الأريكة بهدوء في منزل يجمعني برجُل يحبني جدًا وهي في بيت أهلها مع طفلتها وآخر يعيش أيامه الأخيرة داخلها ، كيف حدث ذلك؟

كيف ينجو الشخص الذي تسبب بالدمار ويُعذّب البريء!

حين انتشر خبر انفصالهما رسميًا في العائلة كان الجميع يعيش حالة إنكار وكأن أمرًا كهذا مستحيل الحدوث، كيف يترُكها وهو يعشقها جدًا؟! كانوا يلقبونهم بـ «قيس وليلى» لأن حُبهما كان واضح حتى في ملامح «بسمة» الصغيرة، فتيقّنوا أن ما أصابهم ليس إلا حسدًا أو رُبما . . .

- «سحروهم اللي ما يخافون الله»

كما تقول خالتي التي كانت موجوعة جدًا على حال ابنها، كيف صار ضعيفًا ومهزومًا وعاجزًا عن الاستمرار بالحياة، كان لا يأكُل ولا يرغب بالخروج والاختلاط بالناس، يعيش أيامه في عُزلة تعيسة. كانت خائفة عليه من المرض والتعب ولم تتردد النساء الأخريات بمساعدتها بالدعاء أو بوصفة علاجيّة مجرّبة على حدّ قولهن، كانت مقتنعة تمامًا بأنه محسود ولا تستطيع إقناعه بالذهاب لقارئ يدّعي القُدرة على الشفاء مقابل مبلغ من المال، فأحسّت بالعجز واكتفت بالدعاء الممزوج بالدموع.

ماذا لو عرفت بأنه يعاني الحنين والفقد؟

ماذا لو أدركَت أنه مريض بامرأة أخرى لا يستطيع الوصول إليها؟!

سترى ضعفه تفاهة ، لن تفهم وجعه ولن تعظّمه كما ينبغي وهذا الأمر سيقتله حتمًا!

كُنت الوحيدة في مجالس نساء العائلة التي تعرف السِر ، أحتسي قهوتي ببرود بينما يتحدّث الأخريات عن القضيّة الكبرى ، "طلاق شهد من بدر» ويبدأن بمحاولة فكّ اللغز وإيجاد تفسير منطقي ، عقولهن البريئة ترفُض تصديق أي احتمال بأن «بدر» قد يكون خائنًا . ولا ألومهن فالعشّاق لا يخونون .

لم أستطع أن أنزع صورة «بدر» من رأسي وهو مرمي على الأرض من التعب كما وصفته خالتي حين زارت أمي آخر مرّة ، قالت بأنه صار مجنونًا ، يردد كلمات غريبة وينادي ابنته ويهذي بأشياء لا يفهمها أحد . . إلا أنا!

إنه مُتعب ويشتهي صوتي ، يشتاق إلى أحاديثنا الطويلة وثرثرتنا التي يتخللها عتَب وغزل وحزن وفرح ، يحتاجني الآن أكثر من أي شيء آخر ، وحدي أعرف كيف آخذ حُزنه وضعفه وتعاسته وأُعيد له شعور الحياة في داخله ، وحدي أملُك القُدرة على ذلك لكني لن أفعلها ، لن أُغامر بالحياة المثاليّة التي أعيشها الآن من أجل سعادته . لن أُقدم على أي تصرّف قد يسلُب مني ملائكيتي أمام زوجي ، لن أكون حمقاء وأضحّي بكل شيء من أجله . لا أنكر أني حزينة ومتعاطفة جدًا معه ، لكنه ليس مسؤوليتي الآن!

أعلم كم يبدو ذلك شنيعًا لكنني لم أصبِر على مرارة الحياة

لتُكافئني أخيرًا بحلوى ثمينة ثُم لا أكون شكورة . ليس بعد أن اكتشفت أن هُناك روح صغيرة تعيش في داخلي وبدأت حياتي تكتمل وتتلوّن!

-١٠-

«المكان الذي يجمع أكبر قدرٍ من السعادة والأحزان هو السرير» .

كانت فرحتي عظيمة حين عرفت بأني سأصير أُمًا ، زادت جُرعة الدلال التي كُنت أتلقاها من زوجي وصار حنونًا أكثر ، حتى أمي التي كانت تتصل بي مرةً كل أسبوع صارت تحادثني يوميًا وتسأل عني بنبرة لطيفة لم أشعُر بها أبدًا في صوتها من قبل . كُنت أعيش أقصى سعادتي ، مُدللة ومحطّ اهتمام أغلى اثنين في عُمري لكن شيئًا ما في داخلي كان يؤذيني فقط حين ينتهي يومي وأخلُد للنوم . قلبي ينقبض بشدّة وأخاف . . هذا الشعور كان يُفسد عليّ كل فرحة عشتها في يومي ، ينخر ذكرياتي الحلوة مثل دودة فاسدة!

صرتُ أعيش في قلق دائم ، كل لحظاتي الحلوة تجعلني أتوتّر لأني أعرف بأنها ستُصيبني بالأرق!

صرتُ مُتعبة أغلب الوقت ، أشعر بالوهن يجتاحني ويسرُق مني قُدرتي على فعل أي شيء ، زرتُ الطبيب ونصحني بأن أستريح في السرير ، المكان الذي أحاول قدر استطاعتي الهروب منه صار سجني الآن . أمي لم تترُكني حين عرفت بأني مريضة كانت تزورني وتبقى معي ليومين أو أكثر ، كُنت آخذ منها آخر الأخبار بطريقة غير مباشرة فعرفت أن «بدر» يُمر في حالة سيئة جدًا وصار يرفُض حتى شُرب الماء ، انعزل عن الناس كلهم ولا يسمح لأحد بأن يراه عدا خالتي التي ابيضّت عيناها من البكاء خوفًا عليه .

لا يأكُل ولا يشرب ولا يخرُج للناس . .

لا أصدق أن الحنين قد يفعل هذا!

كيف يُمكن للشوق أن يتحوّل إلى مرض وعُزلة؟!

صار يفضّل الموت على أن يعيش حياة خالية من المرأة التي يحبها ، لم تقتُله دموع والدته ولا الحُزن الذي صار يسكُن «شهد» ولا حياته التي بدأت تنسحب منها الألوان وتكتسح سوادًا مُخيفًا ، لم يفكر إلا بفقيدة قلبه ولا يريد أحدًا غيرها!

هل يُعقل أن يكون قد فقد عقله؟!

هل فكّر بكل الأشياء العظيمة التي خسرها من أجل الحصول على امرأة وهميّة؟ وماذا لو حصل عليها فعلاً . . كيف سيستعيد خسائره؟

أردتُ كثيرًا أن أُخبره بأن لا شيء يستحق ، ليتني أستطيع أن أقول له الحقيقة حتى يتوقّف عن هذه المهزلة ويقِف لينفُض عن نفسه الحُزن والحسرة ثُم يقبّل أقدام والدته ويعود جريًا لزوجته التي لا تزال تحبه رُغم كل شيء .

كانت تؤكّد لي ذلك في كل مرّة تُحادثني ، حُبها له واضح في صوتها المهزوز وهي تُخبرني بأنها تشتاق إليه جدًا ، لا أدري كيف تغاضت عن خيانته وكذباته بهذه البساطة ، إنها مستعدة لفعل أي شيء من أجل أن يعود إليها ، وتعلم أنه لن يفعل!

أعلم أن نِصف الوجع الذي يشعُر به سيتلاشى لو أنه رأى حبيبته واستطاع لمسها والنظر إلى عينيها مباشرة ، لكن لأنها لا تزال في دائرة الخيال اللذيذ الذي لم يتذوّقه ولو لمرّة واحدة ، من الصعب جدًا أن ينسى ويستدير للحياة . الأمر الأشد مرارةً عليه هو أنها تركته دون أن تودّعه ، سحقت كبريائه ورحلت ولم تهتم بمشاعره التي كانت تُناديها بانكسار ، جرحته كثيرًا ولم تمنحه فُرصة الرد ولو حتى بالإساءة!

لا أدري لمَ أشعُر بأني عاجزة عن الحُب الآن!

أشعُر وكأن قلبي قد أعلن استسلامه ، فصار يؤذيني جدًا أن أرى الحبّ العظيم الذي يكنُّه لي زوجي ولا أستطيع أن أبادله الشعور ذاته . حين ينظُر لي بامتنان وفخر ، حين يلمسني ويحضن يدي بين كفيّه ويشكُر الله علي ، وأنا وسط هذا الكم الهائل من العواطف الصادقة أكتفي بابتسامة خجولة . لا أستطيع إخباره بالحقيقة ، كان علي أن أتظاهر بالحبّ ، حياتي العاطفيّة معه صارت مسرحًا وأنا بارعة جدًا في الأداء . أعيش يومي كله مدفونةً داخل شخصيّة لا تشبهني وكأن التاريخ يُعيد نفسه من جديد!

مُجبرة على أن أكون امرأة أخرى معجونة بالعاطفة والطيبة ، لا أحد سيحب «مزنة» بنواياها السوداء وأفكارها الشيطانيّة ، لا أحد سيحب امرأة أنانيّة لا تفكر إلا بنفسها ، كان علي أن أكون أخرى شهيّة جدًا للحبّ والحياة كي لا أخسر سعادتي . هذه الضريبة التي أدفعها الآن وسأبقى أدفعها لآخر يوم في عمري .

كثيرًا ما أشعُر بالتعب وأتمنى لو أستطيع التوقّف والهرب ، تمنّيت لو أني قادرة على الاعتراف علنًا أمام الناس وليس فقط أمام نفسي . أردتُ أن أتحرر من قيودي ومخاوفي وأعيش حياتي بوضوح ، نعم . . ارتكبتُ الكثير من الأخطاء ورُبما أكون فعلاً امرأة سيئة لكن هذا لا يحرمني حقي بأن أعيش الحياة كما أشتهي وأرغب . أرهقني جدًا التظاهر بأنني شخصٌ آخر ، كل يوم أعيشه أشعُر وكأني قطعت مسيرة قرنٍ من المشقّة والتعب . والآن بعد أن صارت في داخلي روح تُناصفني كل شيء بدأ شعوري بالذنب ينهش قلبي وتضاعف معه الألم وأصبحت عاجزة عن مُغادرة السرير .

بدأت أشعُر بكآبة شديدة ، صرتُ حزينة مُعظم الوقت وأبكي بلا سبب مما جعل زوجي يقلق كثيرًا بشأني لذلك فضّل أن أكون قريبة من أمي . حين عُدت إلى غرفتي ، عُدت إلى ذكرياتي القديمة ، إلى كل شيء حاولت جاهدة نسيانه في الأيام الماضية ، عُدت إلى نفسي وازدادت معاناتي سوءً ،

سريري مملوء بالذكريات السيئة ، مخدتي مبللة بلحظات مالحة ، حتى خزانة ملابسي كل قطعة داخلها تحمل شيئًا من الماضي ، صرتُ مُجبرة على مواجهة كل شيء ولم يُعجبني هذا ، ليس وأنا في هذه الحالة البائسة .

هل هذه عقوبتي؟!

سألت نفسي هذا السؤال كثيرًا ، أعرف بأنّ خطيئتي لن تُنسى وتُغتفر حتى وإن صرتُ أطهر من مريم العذراء ، أعرف بأني سأُعاقب لكن إيماني برحمة الله أعظم من هذا ، لن يُعاقبني وأنا أحمل فيَّ روحًا بريئة لا شأن لها بذنبي وخطيئتي ، لكني مُتعبة كثيرًا وهذه المرّة لا أستطيع ابتلاع وجعي بصمت . صرتُ أشعُر بأن هذه هي نهايتي فعلاً ، حياتي اقتحمها السوادُ من كُل جانب ، صرتُ تعيسة وكئيبة لدرجة أني طلبتُ من الله أن يأخُذني ، ظننتُ بأن الموت وحده سيُخلّصني من عذابي .

عـشتُ في عُـزلة مُـخيـفـة وبدأت أرى الحـيـاة كـمـا يراها «بدر» ، سلسلة من الذكـريات الحـزينة تحوط بعنقي وتخنقني ، عادت مخاوفي إلي لكنها كانت أكثر شراسة وعُنفًا ، صارت تستـهـدف نقطة ضـعـفي الكُبـرى ، طفلي الذي بدأ يكبُـر في داخلي .

كيف سيكون حاله لو لم أكُن أُمًّا صالحة؟!

كـانت الأفكار تعـصف في رأسي وخيـالي لا يتـوقّف عن تصوّر كوابيسي وهي تتحقق أمام عيني ، لم يشعر بي أحدٌ عدا أمي التي كانت تراقب تعاستي وهي تكبُر يومًا بعد يوم وتحاول مكافحتها بالدُعاء والصلاة ، صرتُ أحبس نفسي في غُرفتي حتى لا ترى حُزني فتحزن ثُم تشعـر باليأس حين تُدرك بأنها عـاجـزة عن انتـزاع وجـعي مني ، لا أريد رؤية الانكسـار في عينيها وهي تنظُر إلى ابنتها الوحيدة تُعاني وتتألم ولا تستطيع منع هذا عنها .

كُنت أعيش حُزني وحدي بعيدًا عن الناس مثل «بدر» ، غرفتي تابوت وسريري كفن ، لا يفصلني شيء عن الموت عدا أن أتوقّف عن التنفس ، لا أدري كيف بدأت أذبُل فجأة وفي جوفي حياة جديدة ، يُفترض أن أكون متوهّجة لا شاحبة لكن ملامحي تُشبه الأموات وجسدي هزيل لا يقوى على حملي أنا وطفلي معًا . حين بدأت أتيقّن بأن هذه هي العقوبة التي كُنت أتوقّع حدوثها أُصبتُ بحالة حزن عميقة جعلتني أضعف وأنهار في لحظة وأكتُب رسالة نصيّة جديدة :

«أهلاً بشّار ، أنا بسمة» .

كـانت أصـابعي ترتعش وأنا أحـاول الضـغط على زرِ الإرسال ، كُنت مُدركة بأني أكتُب برقم هاتفي الخاصّ وأعلم أن هذه الحماقة قد تكشُف حقيقتي وتفضحني لكني لم أهتم ، أردت الخلاص من عذابي بأي طريقة ، تصوّرت لو أن «بدر» حصل على تبرير لاختفائي أو حتى إشارة بأني لا زلتُ بخير سينتهي أَلَمه ويغفر لي ويعود كل شيء كما كان ،لكني وفي آخر لحظة ، وجدتُ نفسي أتصل بـ «شهد» وكانت هذه المرّة الأولى التي تحدثتُ بها معها وكأنها صديقتي فعلاً ، أخبرتُها عن تعبي الشديد الذي أُعاني منه وطمأنَتْني بصوتها الحنون ، ثُم استرجعت معاناتها وذكريات حملها الأوّل ، كانت مستقرّة وهادئة واستشفّيتُ من نبرتها بأنها وجدت الأمان أخيرًا بعد رحلة طويلة من المشقّة!

لكن قلبي ارتجف للحظة حين قالت بصوتٍ جادّ . .

- «أبي أقول لك شيء ، وأتمنى تسمعيني للآخر لأن ما أظن بتجي فرصة ثانية لهالكلام» .

-١١-

«بإرادتنا نعشق ونندفع وبإرادتنا نكره ونبتعد . لا شيء يسيّرنا ضد ما نشتهي ولو آمنّا بعكس هذا فلتشهد السماء بأننا أغبياء» .

- مزنة ، بسرعة تأخّرنا . .!!

سحبت حقيبتي وخرجت ، كان زوجي يقِف عابسًا ينتظرني وحين ابتسمت له استرخت عقدة حاجبيه ببطء وابتسم بإعجاب ، لا أدري كيف أستطيع أن أُثير إعجابه دائمًا وكأنه يراني لأوّل مرّة رُغم أنه مضى على زواجنا أربع سنوات ، لم يفتُر الحبّ ولم تختفي الدهشة ، أربع سنوات مرّت لذيذة وكأنها حُلم ، وها أنا أجلس إلى جانبه في السيارة وأرى طفلي بين أحضانه يشاركه القيادة ، لازلتُ أجهل الحسنَة التي بفضلها صرتُ زوجة لرجُل عظيم وأُمًا لطفلٍ رائع يشبه والده . أشعُر وكأني أُولد من جديد حين أنظُر إلى وجه «بشّار» ، ابني ، تختفي كل همومي ومخاوفي مثل فقاعة صابون وأحاول

جاهدة أن أكون الأم الأفضل في هذا العالم من أجله . حين أسترجع الماضي لا أرى إلا «بشار» ، كل الذكريات والأحداث واللحظات التي كُنت أتعثّر بها اكتسحها ضباب النسيان ، آمنتُ بأن القدر كان دائمًا يأخُذني إليه . لهذا السبب لم أتوقّف يومًا عن الكفاح .

كل الأشياء بدأت تتغيّر حين أدركت بأن الوجع غير قابل للمشاركة وتوقّفت عن محاولة إصلاح الفساد الذي حدث بسببي ، تصالحت أخيرًا مع خوفي الأكبر وهيأت نفسي لأسوأ الاحتمالات التي لم تحدُث أبدًا ولا أدري ما السبب؟

هل يفعل الحظ هذا؟!

لم أعتبر نفسي امرأة محظوظة في السابق لأن حياتي كانت خالية من المُعجزات ، لكنني الآن بدأت أرى ذلك ، حياتي وحدها معجزة عُظمى ، أعلم بأني لا أستحق أكثر الأشياء التي حصلتُ عليها لكني لا أرفُضها ولو حتى من باب اللباقة والأدب . حين تنازلت عن عاطفيّتي كل شيء استصعبته صار يسيرًا . النسيان ، التجاوز ، المضيّ قدمًا ، الوقوع في الحبّ من جديد ، بداية حياة خالية من ترسبات الماضي . وهذا ما فعلته ، لم يكلفني شيئًا عدا اتخاذ القرار!

لا زلتُ أذكر مكالمة «شهد» الأخيرة ، كان صوتها مستقراً حين بدأت تبوح بالثرثرة الطويلة التي أثقلت قلبها ، أخبرتني

بأنها قررت بأن تكُف عن المحاولة وتتقبّل القدر دون اعتراض ، لا شيء يحدُث بالقوّة ، ولو كان مقدّرًا لها أن تعود إلى بيتها ستعود لكنها اعتزلت البُكاء والانتظار ، ثُم استقام ظهرُها وأمسكت بيد صغيرتها والتفتت لحياتها ، أنجبت طفلاً آخر بعد أشهُر ثُم تزوّجت رجُلاً يحبها لذاتها لا لشيء آخر .

كانت سعيدة في صورتها الأخيرة التي أرسلتها ، ثقتها بي لم تتزعزع ولو للحظة ولا تزال تعتبرني صديقة مقرّبة إليها حتى بعد أن انفصلت عن العائلة ، لا أدري كيف حدث ذلك!

لا أدري كيف أفسّر الشعور الذي يعتريني حين تشكُرني على كل شيء فعلته معها في لحظات انكسارها ، كانت تقول بأني الوحيدة التي وقفت إلى جانبها حين تخلّى عنها الجميع ، أعلم بأنها تشعُر تجاهي بالامتنان الشديد وأنا أبادلها شعور العطف والمحبة ، طيبتها المُفرطة لم تتأثّر رُغم كل ما حدث ، لا تزال «شهد» المرأة التي أعرفها ، مخلوقة من حُبّ .

تمنّيت كثيرًا لو أني أستطيع إخبارها بالقصّة كاملة بعد أن صرتُ أراها من زاوية أخرى ، سنحتفل معًا بالانتصار ضد رجُل خائن لعوب ، ستشكُرني لسبب حقيقي وهو أني خلصتُها منه لأنها تستحق رجُلاً أفضل ، لا يخون ولا يكذب . سترى بأني فعلاً صديقة حقيقيّة ورائعة! لكني فضّلت أن أحتفظ بكُل شيء داخلي ، دفنتُ أسراري في أعماقي وأقسمتُ أن لا أبوح بها لأحد .

تعاملت مع الماضي مثل رواية قرأتُها ولم تُعجبني بعض الفصول فانتزعتُ السيء منها وتركتُ الأخرى التي أصابتني

بالذهول! ، لحظة وقوعي بالحُبّ ، شعوري الأوّل بالغيرة ، كل دهشة ورعشة اعترَت قلبي ، حُزني وفرحي وانكساري وقوّتي ، لا أريد أن أخسر هذا كله فقط لأني ارتكبتُ خطأ عاطفياً جسيماً!

حين رأيت طفلي لأوّل مرّة ، رأيت «بشار» الذي يعرفه قلبي ، كان صغيرًا جدًا بملامح حمراء عابسة على وشك البُكاء ، هذه اللحظة بالذات انفصلتُ بها عن كل ذكرى سوداء ارتبطت بي من الماضي ، وصرتُ مجرّد امرأة أُخرى أحبّت رجُلاً ما لم تستطع الحصول عليه ، لكن الحياة كافأتها بما هو أعظم!

أُدرك بأني استخدمت الحيلة ذاتها التي استخدمها «بدر» حين اختار أن يُسمّي ابنته «بسمة» ليوثّق حُبه ، لكني فعلتُها لسببٍ مُختلف ، أردتُ أن أُطهّر ذِكرى بأُخرى أُدرك بأنها لن تُنزَع مني أبدًا وهذا ما أحتاج إليه . لن أكذب على نفسي وأقول بأني استطعت نسيان شعوري الأوّل بالحبّ وفي الحقيقة أنا لا أحاول نسيانه ، الحبّ ليس خطيئة ، لكن الأحداث التي ارتبطت بهذه الذكرى أفسدته وصار ذنبي الأكبر . لكني لا أزال مُغرمة بالفكرة والشعور والذِكرى ، وليس الشخص الذي كان وراء هذا كله . والآن بعد أن صار «بشار» صغيرًا بما يكفي لآخذه إلى صدري وأحميه من بشاعة العالم ، وجدتُ نفسي أعيش في تصالح تامّ مع الماضي . ولا شيء يُثبت هذا أكثر من هذه اللحظة حين جاءت خالتي ترحّب بي عند بوابة قاعة الزواج :

– هلا ومرحبا فيك يا أم بشّار

- هلا بك خالتي ، ألف مبروك زواج «بدر» ، الله يوفقه ويهنيّه

قُلت ذلك بابتسامة دون أن أشعُر بقرصة جارحة في قلبي . .

على العكس تمامًا كان يحتفل ويرقُص فرحًا وسرورا .

-١٢-

«مساحة فارغة»

الوقت : ٠٩ :٣ ص

العنوان : «آسفة»

الرسالة :

«حبيبي بشّار ، كيف حالك؟

أعلم بأنّك لست بخير . .

قلبي يُخبرني بذلك كل يوم ، ويقتلني هذا الشعور!

قبل أن أُخبرك بكل شيء تُريده أقدّم لك اعتذاري . .

أنا آسفة . . آسفة جدًا . .

أرجوك اقبل اعتذاري قبل أن تستمرّ بالقراءة . .

أتوسّلك أن تسامحني الآن وفي هذه اللحظة . . من أجلي!

هل سامحتني الآن؟

اكـتب لي إجـابتك هنا في هذه المسـاحـة الفـارغـة «. . . . .» .

والآن اقرأني بهدوء . . لا تنفعل ولا تغضب . .

ابتعدتُ عنك برغبتي!

هل تعرف لمَ فعلت ذلك؟!

لا أدري . . لكني سأخبرك الحقيقة الآن . .

علمتُ بالصُدفة أنك متزوّج ولديك طفلة جميلة . علمتُ بذلك مُنذ مُـدة طويلة لكني لم أبُح لك بشيء لأني كُنت أخشى أن أخسرك ، أعلم كم يبدو هذا مثيرًا للشفقة فلا توجد خسارة أكبر من التي حدثت بالفعل لكنه الحُب يا «بشار» . . الحُب يجعل عقولنا تتعطّل فنرتكب الحماقات!

احتفظتُ بك نِصفَ حبيب ولم أُمانع ذلك في البداية ، فقليلُك في عيني يكفي . لكن غيرتي لم تهدأ أبدًا ، ولا أحد يعرف مرارة هذا الشعور أكثر منك . لم أحتمل وجود امرأة

أخرى في حياتك تُناصفك كل شيء حتى لُقمة الطعام!

حين أدركتُ بأنك لا تنوي حتى إخباري بالحقيقة فضّلت الابتعاد بصمت ، لأني أعلم بأنك لن تترُكني أبدًا وليس من العدل أن أكون معك بشعورٍ كامل وأنت تبادلني بقايا مشاعر .

حبيبي ..

أرجوك لا تغضب مني الآن .

أكتُب لي هنا في هذه المساحة الفارغة بأنك لن تفعل « ..... » .

لا أكتُب لك هذه الرسالة لأخبرك بأني سأعود إليك ، ولا أنوي هذا في الحقيقة . لأني لن أكون معك كاملة فأنا صرتُ الآن زوجة رجُل آخر!

صدقني ..

لا أحاول إثارة غيرتك لأني أعرف بأنها قاتلة!

أخبرك بهذا لتفقد الأمل بعودتي .

لن أعود أبدًا ..

أرجوك لا تحزن الآن ..

أُكتب لي في هذه المساحة الفارغة بأنك لن تفعل « ...... » .

توقّف عن انتظاري لأني أكره أن أخذلك .

توقّف عن الحزن . .

عن الحنين . .

عني!

حبيبي أرجوك ..

هذه المرّة فقط لا تخذلني .

سأنتظر إجاباتك خلال ٢٤ ساعة وبعدها لن أستطيع استقبال أي رسالةً منك .

الحياة لن تجمعنا أبدًا,

دعنا نُنهي وجعنا وحزننا بسلام ..

رسالة واحدة منك هذا كل ما أطلبه .

هل هذا كثيرٌ علي؟»

بعثت هذه الرسالة قبل أربع سنوات ، كتبتُها في لحظة ضعف وانكسار لم يشهدهما قلبي من قبل . شعرتُ بأني لو لم أكتُب له سأموت . كانت هذه وسيلتي الوحيدة لأتقيّأ ذلك الشعور البغيض!

أردتُ أن ينتهي كُل شيء بسلام ، فأنشأت بريدًا إلكترونيًا جديدًا وبعثت هذه الرسالة الطويلة إليه ، حاولت قدر استطاعتي أن أكون «بسمة» التي يحبها لكني فشلت ، توقّعت

أن يكون ردُه سريعًا لأنه لن يصدّق بأنه وجد وسيلة توصِلُه بحبيبته الهاربة لكن لم يحدُث شيء . انتظرت رسالة منه ثلاثة أيام امتدت لأسبوع لكنه لم يكتب لي شيئًا فأدركتُ بأنني كُنت أُخاطب حائطاً!

حين تلقيت بطاقة الدعوة لزواجه تذكرت هذه الرسالة ، ولا أدري لمَ ثار فضولي واندفعت أتفقّد صندوق الرسائل في البريد الالكتروني الذي تذكرته بصعوبة ، حتى كلمة السرّ كانت منسيّة تمامًا . لكني استطعت الدخول للبريد ووجدتُ رسالة واحدة واردة تاريخُها قبل أربع سنوات!

كانت «مساحة فارغة»!

لم يكتُب لي شيئًا عدا نقاطٍ متجاورة!

«......» .

في البداية لم أفهم معناها ، لكن هذه الليلة ، حين رأيت زوجته الجديدة وهي تمشي على السجادة الحمراء بخُطى خجولة ، كانت جميلة جدًا بفستان لؤلؤي يُبرز رشاقتها ، شعرُها طويل فاحم السواد مما جعل بشرتها البيضاء تتوهّج كالألماس الذي يتدلّى من عنقها .

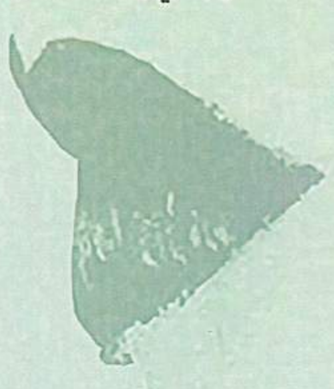
ذكّرتني كثيرًا بالضحيّة السابقة!

فهمتُ كل شيء الآن . .!

امرأة سيئة جداً

هنوف الجاسر

لا أحد يشعر بوجعصبية البلد حين تضطر لمخالطة امرأة سرقت مكانها باسم الحظ، المقعد المجاور للسائق والنصف الآخر من السرير وخزانة الملابس، الأمر أشبه بتجربة طعم الموت دون أن تموت فعلا، لا حق لها بالهرب أو البكاء علنا، تصمت وتبتسم وقد تقبل أطفالها وتلاعبهم بقلب مفطور، على عكس الرجل حين تسرق منه حبيبته، يستطيع الهرب والهجرة دون أن يقلق من مواجهة السارق، أو مصادفة أولادها والتورط المخيف برائحتها في ملابسهم "لكن ماذا لو تمردت واخترت تصرفا آخر عدا ابتلاع وجعي بصمت، هل سأكون امرأة سيئة؟




ISBN 9957-06-033-3
9 789957 060336



رسم : GUOHS_ART
تصميم : 6Y4